أشهر العقائد الدينية في العالم القديم



احمد سويلم




al-maktabeh
مكتبة
المهتدين

أشهر العقائد الدينية
فى العالم القديم



٢ شارع امتداد رمسيس (١) ـ مدينة نصر ـ القاهرة

تليفاكس: ٢٤٠٢٤٦١٢ ـ ٢٤٠٥١٤٩٨

e. mail: af _ madkour @ yahoo . com

الطبعة الأولى: يناير ٢٠١١ م/ صفر ١٤٣٢ هـ

رقم الإيداع: ٢١٧٠٠ / ٢٠١٠

الترقيم الدولي: ٩ ـ ٠٤٦ ـ ٤٩٥ ـ ٩٧٧ ـ ٩٧٨

■ اعرف كل شيء ■

أشهر العقائد الدينية في العالم القديم

تأليف

أحمد سويلم



بيانات الفهرسة المكتبية

(إعداد: إدارة الشؤون الفنية بدار الكتب المصرية)

سويلم، أحمد.

أشهر العقائد الدينية فى العالم القديم/

أحمد سويلم . .

ط ١ . . القاهرة: دار العالم العربى، ٢٠١١ .

١٦٠ ص؛ ٢١ سم . . (اعرف كل شىء)

تدمك: ٩٧٨ - ٩٧٧ - ٤٩٥ - ٠٤٦ - ٩

١ . الديانات القديمة

٢ . العقائد

٣ . العالم القديم - تاريخ

أ . العنوان

ديوى ٢٩١,٠٤٢



المحتويات



قبل أن تقرأ


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

لابد أن قارئى العزيز يوافقنى أن الإنسان القديم ـ قبل هبوط الأديان ـ كان حائرًا فى معرفة سر هذا الوجود..

فقد كانت أسئلة كثيرة تلاحقه وتلح عليه تتعلق بهذه السماء التى تعلوه وهذه الأرض التى يمشى عليها.. وهؤلاء البشر الذين يتكاثرون ويعيشون ويموتون.. وهذه الكائنات الحية من حيوان ونبات وحشرات.. وهذه الكواكب والنجوم.. وفى مقدمتها الشمس والقمر.. وهذه الرياح والعواصف والفصول الأربعة.. وغيرها من مظاهر الطبيعة التى وقف أمامها حائرًا متسائلًا.

لقد أدرك ـ عن طريق عقله ـ أن هناك قوى خفية تحرك هذا العالم من حوله.. وتوهم حينًا أنها الشمس أو القمر.. وحينًا آخر الرياح والعواصف وآنًا اعتقد فى آلهة غير منظورة.. وأخرى موجودة فى الطبيعة.

وكلما كان يمعن فى التفكير يزداد حيرة وتساؤلا..

لكن لا بد له أن يخرج من هذه الحيرة بأى تصور يشبع تفكيره ووجدانه.. فأخذ يتصور ويتخيل ويصنع الأساطير حول خلق العالم والموت والعالم السفلى وكيف أقيمت السماء.. وامتدت الأرض.. وعمر العالم.

إنها إذن قصة طويلة تشابهت فصولها فى كل شعوب العالم القديم، وإن اختلفت فى المسميات وتفاصيل وقائعها من منطقة إلى أخرى..

وكان لا بد أن يخرج بين الحين والآخر ـ فيلسوف أو كاهن كبير.. أو عالم أو مفكر محاولًا الإجابة عن بعض هذه الأسئلة، فيتبعه الناس لأنه أرشدهم إلى الطريق الصحيح.

ويقيم البشر تماثيل ومعابد للآلهة التى تصوروها بقصد العبادة واكتساب رضا الآلهة.

ومن هنا ظهرت عبادة الأوثان.. والحيوان.. والطواطم.. وبدءوا يتقربون إليها.. ويتصورونها ـ أحيانا ـ وسيطًا للإله الأكبر الذى يحميهم لأنهم عبيده.

هذه التصورات البدائية عن الخلق والخالق استمرت طويلًا. حتى هبطت الديانات السماوية لتقول كلمة الفصل فى العقيدة.

ولا ندعى أن الأديان السماوية قد أثرت فى كل شعوب العالم وأقنعتهم بوحدانية الله.. فما زال كثير من العقائد القديمة لا تلتفت إلى ديانات السماء.. مخلصة لكل ما هو موروث عن عقائد الماضى..

إن قصة الإنسان مع الآلهة.. قصة ممتعة حقًّا.. توضح لنا خيال البشر ومدى ما كان يتصورونه عن هذه الآلهة.. وكيف استطاعوا أن يصفوها.. ويجعلوا منها الإله الأكبر.. وإله المطر.. وإله الرياح.. وإله الأرض.. وإله الشعر والموسيقى.. وغير ذلك.

وهذا الكتاب الذى بين يديك يلخص لك عددًا من هذه العقائد القديمة لتتعرف عليها.. ولتقف على مدى الفكر الإنسانى وآفاقه التى صنعت كثيرًا من الأساطير ومزجتها بالواقع والتاريخ..

وكان منهجنا أن نحيط بخيوط أو إطار كل عقيدة فى حضارة قديمة بعيدًا عن التفصيلات المملة التى تبعدك عن جوهر هذه العقيدة.. ولا بد

أنك ستكتشف بعد أن تنتهى من القراءة أن الإنسان هو الإنسان فى الصين واليابان وفارس ومصر.. والمكسيك وإفريقيا.. وغيرها..

إنه الإنسان الذى فكر وتصور وصمم على أن يكمل دائرة تفكيره بالعقيدة لتساعده على مواصلة الحياة والاستمتاع بها.. فى ظل قوة الآلهة ورحمتها.. وحنوّها.. متجنبًا إغضابها حتى لا ينال عقابها فى الدنيا أو الآخرة.

إنه طواف من الشرق إلى الغرب وراء معتقدات الإنسان القديم أتمنى أن يضيف شيئًا مهما إلى خزينة معرفتك.. وإلى تفكيرك ووجدانك.

والله الموفق،

أحمد سويلم

ديسمبر 2010

[1]

العقائد الدينية فى مصر القديمة

حينما اكتشف الإنسان هذا الشريان العظيم ـ النيل ـ بدأ يمارس حياة الاستقرار على شاطئيه.. بل نزح إليه أقوام كثيرة من الشرق والغرب والجنوب وامتزجت جميعًا ليكونوا شعبًا مصريًّا له حياته وعقائده الخاصة..

وكانت مصر ـ أول عهدها ـ مقسمة إلى إمارات صغيرة على ضفتى النيل.. وكان لكل إقليم معبوده الخاص.. ينتسب إليه.. ويقدسه.. ويهتف باسمه..

وواضح أن عقائد المصريين كانت من وحى الطبيعة وألوانها.. فقد عرفوا الحيوان والطير والتماسيح والزواحف.. ومنها ما هو خطير وما هو أليف.. فبدأوا يقدسون الخطير منها حتى يسترضوه..

قدسوا السبع وبالغوا فى تقديسه خاصة أنثاه لما عرفوا فيها من قوة البطش وشدة الفتك ثم جعلوا من الذكر رمزًا للفرعون.

وقدسوا فحل البقر.. بل قدسوا الفحول من كل جنس.. من الضأن والماعز والطيور لما لها من قدرة على الإنجاب..

وقدسوا إناث البقر متخذين إياها رمزًا للأمومة.. معبرين بها عن السماء أمِّ الطبيعة..

وقدسوا من الطير الجوارح مثل النسر والصقر وجعلوا منها رموزًا للفرعون لقوتها ونبل مظهرها وقدرتها على الانقضاض بين الطيور كلها.. وتحليقها فى السماء بشموخ وعظمة.

كما قدسوا (أبو قردان) لما رأوا فيه من الرزانة والهدوء وتنقية الأرض من الحشرات رامزين به عن البحث فى سبيل المعرفة.. فكان يرمز إلى العلم والحكمة. ومن الطبيعة أيضا قدس المصريون الشجر والحجر.. متوهمين أن بها أرواحًا تمثل قوى الآلهة..

كانت الطبيعة إذن هى التى ألهمتهم تقديس عناصرها..

إن وثائق العقائد الدينية فى مصر تعود إلى حوالى 3200 سنة قبل الميلاد.. حيث نتعرف عليها من خلال محتويات المقابر التى تعود إلى هذه الفترة القديمة من التاريخ؛ فالأوانى تحتوى على الطعام والشراب والأدوات والأسلحة والحلى البدائية التى كانت توضع مع الموتى.. ولهذا كانوا يعتقدون باستمرار الحياة بعد الموت.. وهى حياة قد تتشابه مع حياتهم لهذا وضعوا للموتى ما كان يستخدمه قبل أن يموت..

لكن من أين أتت فكرة البعث عند المصريين القدماء.؟

لقد أتت أيضًا من تأمل الطبيعة.. فالشمس تغيب فى غرب الوادى لكى تطلع من شرقه ويكون الصباح والنهار والحياة... وكذلك القمر يختفى من السماء ليعود مرة أخرى.. وحتى نهر النيل نفسه ما يكاد ماؤه ينقص حتى يعود ويفيض. والأرض الزراعية يحصد الإنسان محصولها ليزرعها بغيره مرة أخرى..

كل هذه المظاهر تدعو إلى التفكير فى البعث.. وتكرار دورة الحياة.. ولهذا اعتنوا كثيرًا بمقابر الموتى.. بل كان للموتى أعياد يذكرهم الأحياء فيها ويحملون إلى قبورهم كثيرًا من ألوان الطعام والشراب.. ثم يلهون ويمرحون ويغنون.. وهم يرتدون أفخر الثياب..

وكانت العقيدة المصرية أيضًا تقول إن أرواح الموتى تستطيع أن تغادر القبر وتعود إليه فى هيئة الطير.. وأرواح الفراعين كانت تستقر بين نجوم

السماء ثم تهبط منها فى هيئة الطير لتزور الجسد فى قبره أسفل الأرض أما الملوك المصريون فلا يغادرون عرش الفانية إلا ليتربعوا فوق عرش الباقية..

وتصف الوثائق هذه الرحلة العجيبة بأن الملك حينما يودع الدنيا يعرج إلى السماء فى هيئة الصقر.. فيستقبله على أبوابها حراس يتحاورون معه ثم يأخذونه فى رحلة علوية طويلة إلى ساحة العرش الإلهى حيث يرحب به الإله الأكبر ويتقبله على أنه ولده.. ثم يجلسه على عرشه.. ويبعث فى عالم السماء من يعلن أهل الأرض أن سلطان فرعون الأبدى قد استقر فى السماء.. وحينما تستقر روح الفرعون بين نجوم السماء يهبط جسده إلى الأرض ليستقر فى حضرته..

ويدل على هذه الرحلة العجيبة ما جاء فى رثاء الملك (أوناس):

أيها الملك الراحل.. لقد غادرتنا حيًا ولم تذهب ميتًا..

وأن لك لسطانا إلهيا خالدا.

لك سلطان أوزيريس..

لقد جاء الملك ليتربع على عرش أوزيريس

وها هم أهل الخلود قد جاءوا يقبلون الأرض بين قدميك لقد فتحت لك أبواب السماء.. ووقف (رع) ليلقاك ويأخذ بيدك إلى قصور الآلهة..

....

وفى تأمل الإنسان للطبيعة أمور كثيرة. وإجابات عن الأسئلة الحائرة.. خاصة عن بداية الخلق..

لقد توصل المصرى القديم أنه لم يكن هناك شىء فى البداية سوى اللاوجود أو الفوضى.. ثم تخيل وجود الإله المنظم لهذه الفوضى وأطلق

عليه (الواحد القديم) وفيه خصائص كثيرة أهمها: العمق العظيم.. واللانهاية.. والظلام السائد.. وتجلى ذلك فى الإله (آتوم) حيث بدأ وجوده الذاتى من فوق قمة تل أزلى انبثق من المياه أو اللانظام.. ثم نفخ الإله فى يده.. فخرج الإله (شو) والآلهة (تفنوت) حيث ملأ الحياة بالنسل الكثير..

إن عصر ما قبل التاريخ يحكى لنا عن جذور العقيدة المصرية وبداياتها بشكل موثوق.. ويمكننا أن ندرك أن تقديس الحيوان كان يسود هذه الحقبة التاريخية.. فقد كان الإنسان ينظر إلى الحيوانات البحرية ـ رغم أنها هدف للصيد ـ نظرة ملؤها الهيبة والرهبة بسبب قوتها وضراوتها.. فقد وجدت صور للأسود والثيران المتوحشة ترمز للسلطة المسيطرة واتخذها الملك (نارمر) رمزًا له.. كما ظهرت اللبؤة - وليس الأسد - معبودة فعلية تحمل أسماء عديدة تختلف باختلاف أماكن تقديسها وظهرت فى مقابر الدولة القديمة فى أماكن متفرقة..

أما عقيدة الثور الوحشى.. فقد كانت فى مصر السفلى.. وكذلك فرس البحر.. فى عصر الدولة الحديثة.. على حين قدس التمساح فى أماكن متعددةخاصة فى (الفيوم) وكان يعرف باسم (سوبك).. كما عثر على تماثيل صغيرة للقردة منذ وقت مبكر فى (الأشمونين).. وقد سبقت عبادة الإله (تحتوت) برمزه المقدس الطائر (أبيس) فى هذه المدينة.. أما الرمز الحيوانى للمعبود (ست) فهو يمثل حيوانا يشبه الحمار له أرجل طويلة وآذان طويلة أيضًا وذيل قصيرة قائم.. وكان إلها للوجه القبلى منافسًا لعقيدة (حورس) فى شكل الصقر..

كما قدسوا الغزال فى مصر العليا.. وكذلك الكلاب ربما لفائدتها فى الصيد والحراسة خاصة فى (أسيوط).. والذئب.. والهرة والنمس والرخمة أو

(أنثى النسر).. كما قدسوا الكوبرا بمصر السفلى..

أما (البقرة المقدسة) فقد كانت فى عدة أقاليم فى مصر العليا.. وكان الرمز الحيوانى للآلهة (حتحور).

وكذلك وجدت عقيدة الكباش المقدسة فى صورة الإله (خنوم) أما الكبش المقدس الذى كان رمزًا للإله (آمون) فقد عرف فى الدولة الوسطى.. وهو كبش له قرون مقدسة وذيل عريض.

ويمكن أن نرجع أيضًا فكرة تقديس هذه الحيوانات إلى عشق المصرى القديم لطبيعته التى تتنوع فيها الحيوانات والطيور..

وكما قدس المصرى الحيوان قدس النبات أيضًا.. فقد كان بمصر العليا مقاطعتان تحملان رمزًا فى شكل أشجار.. ربما كانت شجرة (الدَّفْلى) الدائمة الخضرة.. وأيضًا شجرة الجميز التى وجدت على مقربة من (منف) حيث كان يعتقد أنها مستقر إلهة أنثى طيبة تنفع الناس ببركتها.. حتى إن الإلهة (حتحور) منحت لقب (سيدة الجميز).

ولم تتوقف العقائد عند هذا الحد.. بل وجدناها تقدس أشكالًا مادية أخرى مثل الأعمدة والنُصب والمسلات.. والصولجان الذى يرمز إلى القوة والسلطة.

أما الآلهة فقد اتخذت أشكالًا إنسانية.. وغير إنسانية.. والإله (مين) كانت له هيئة آدمية ممسكا بيده اليمنى سوطًا مرفوعًا. والإله (آش) كانت له أيضًا هيئة بشرية..

وهناك أثر منقوش للملك (زوسر) مؤسس الأسرة الثالثة يحمل رسومًا لألهة صورت جميعا فى هيئة بشرية.

وقد كان خيال المصرى القديم واسعًا عريضًا عميقًا فهو يرسم آلهته ويعبر من خلالها عن أفكاره ومعتقداته..

ومن ذلك أنه رأى فى السماء بقرة كبيرة تعتمد على قوائمها الأربعة التى تمثل دعائم السماء وفيها يبحر قارب يحمل شمس الصباح.. وأحيانًا رأى فى السماء امرأة تحل محل البقرة.. تنحنى بجسدها المديد فوق الأرض وتعتمد على ذراعيها وساقيها..

أما الشمس فقد رأى المصرى فيها حيوانًا مرة.. ومرة أخرى قرصًا مجنحًا.. حيث يحلق (حورس) فى السماء فى شكل قرص مجنح مهاجمًا أعداءه. ومنقضًّا عليهم بقوة حتى إنهم اضطروا إلى الهروب.. وحينما يعود (حورس) إلى سفينة أبيه يقترح الإله (تحوت) منحه لقب (حورس الإدفوى) ثم يتفقد (رع) أرض المعركة فيرى الأعداء يفرون ويهبطون إلى الماء فى شكل تماسيح وأفراس نهر.. ويحاولون مهاجمة سفينتة لكن حورس بقرصه المجنح يهزمهم مرة أخرى. وكما كان الإله (رع) فى هليوبوليس.. فقد كان الإله (بتاح) فى منف.. وكان إله الفنون والصناعات.. بل قال عنه الكهنة إنه خلق الأشياء كلها بفكره هو وبتصوره هو..

أما (آمون) فكان إله الإمبراطورية خاصة حينما انتقلت العاصمة فى الدولة الحديثة إلى (طيبة).. وأطلق على آمون ملك الآلهة. وسيد الملوك.. والإله العظيم.. وسيد السماء.. بل كان فى الدولة الوسطى متحدًا بالإله رع تحت اسم (آمون رع) القوى الشهير.. ثم انفصل عنه بعد ذلك وقوى..

وتشكل آمون فى البداية فى رمز (الإوزة) ثم تحول إلى (الخروف) ثم إلى (رجل ملتح يلبس غطاء رأس تعلوه ريشتان ومن خلفه يتدلى خيط..)

أما إيزيس وأوزيريس.. فلهما أسطورة سنحكيها بعد قليل.. لكننا نقصد أن نقول إن أوزيريس.. ومعناه (حدقة العين) كان إله الموتى.. وقيل إنه كان إله النيل والفيضان والخضرة والنبات.. ولم يكن منافسًا لأى إله محلى..

أما أسطورته فتتحدث عن أنه تزوج بإيزيس.. وأحبه الناس فحقد عليه أخوه (ست) ودبر مؤامرة قتله فيها وشتت أجزاء جسده فى أماكن متفرقة

من البلاد.. ولما علمت بذلك إيزيس بدأت تبحث عن أجزائه.. وقضت فى ذلك وقتا طويلًا حتى استعادت كل الأجزاء وأخذت تدعو الآلهة لتستعيد زوجها.. وفعلًا استعادته.. لكن الآلهة جعلته إلها للموتى.. أما ولده فصمم على الثأر من عمه وانتزاع الملك منه.. وتجسد فى هيئة صقر (حورس) واستطاع أن يقتص لمقتل أبيه.. ويعيد العرش المسلوب.

وبجانب هذه الأسطورة توجد أسطورة أخرى تسمى (دمار البشر) فقد حدثت فى زمن كان البشر والآلهة فيه شيئًا واحدًا يتعايشون على الأرض.. وعندما بلغ الإله (رع) من السّن عتيا بدأ البشر فى تآمرهم ضده.. لكنه أدرك ذلك ودعا الآلهة ليشاورهم فى الأمر فاقترحت عليه الآلهة أن يرسل عينه التى هى الشمس متقمصة ظهر المعبودة (حتحور) لكى تسحق المتآمرين من البشر.

بالفعل تم ذلك.. وعادت حتحور وعرضت تكرار الهجوم مرة أخرى لاستئصالهم تمامًا.. لكن رع أحس بالشفقة على البشر فوجه أعوانه إلى جزيرة (إلفنتين) لإحضار قدر كبير من الفاكهة.. وأمر بتجهيز سبعة آلاف إبريق من الجعة وتم مزج الفاكهة بها.. وفى صباح اليوم التالى أمر رع أن تصب الخمر الحمراء هذه فى الحقول.. بحيث إذا ذهبت الإلهة (حتحور) وشربت منها أصبحت ثملة تمامًا وتغفل عن الانتقام من البشر.. ومن ثم أمكن إنقاذ البشر من مصير رهيب بفضل تفكير الإله (رع)..

فالآلهة إذن هى التى خلقت البشر.. وهى المتحكمة فى مصيرهم.. وقدر البشر بين أيدى الآلهة فيمكن أن يكون قدرًا طيبا أو قدرًا سيئا.. سواء أكان ذلك فى الدنيا أم فى الآخرة..

بل إن الآلهة هى التى تحاسب الموتى بعد الموت.. فمحكمة الموتى يرأسها القاضى الأكبر أوزيريس سيد (الأمنت) أى الدار الآخرة.. متربعًا على عرش ذهبى وفوق رأسه تاج الجنوب الأبيض المرصع من جانبيه

بريشتى نعام.. رمز العدل والحق.. وإلى جوار أوزيريس يتربع الإله (أنوبيس) والإله (توت) وحولهما من الشمال واليمين اثنان وأربعون قاضيًا من الآلهة تكتمل بهم هيئة المحكمة..

وفى وسط القاعة يوجد ميزان توزن به حسنات وسيئات المتوفى.. وتبدأ طقوس الحساب حيث يستجوب أنوبيس الميت ويدون إجاباته فمن رجحت حسناته السيئات قادته الآلهة المحيطون إلى الجنة حيث يوجد فيها الصالحون يستمتعون بالسعادة الخالدة.. ومن رجحت سيئاته حسناته.. يسلم إلى الإلهة (معات) وهى كلبة مفترسة مستعدة دائما لتمزيق كل من يحكم عليه بالعقاب.

وتظل العقيدة المصرية القديمة بآلهتها المتعددة الأشكال والألوان والمهام زمنًا طويلًا. وبالرغم من وجود آلهة كبار.. فهناك آلهة صغار.. بل صار لكل إقليم آلهته.. وربما استحدث كل عهد آلهة جديدة بجانب الإلهة المعروفة.. حتى ليمكننا أن نؤكد وجود فوضى من الآلهة.

وكان لكل إله كهنته ومريدوه.. بل كان الكهنة متعصبين لآلهتهم لا يقبلون غيرها بديلًا.. ويتعايشون على النذور والقرابين التى يقدمها المريدون ليل نهار، حتى إن كهنة آمون بطيبة كانوا يتمتعون بالغنى والسلطان والنفوذ بحيث أصبح فى أيديهم كل شىء يتحكمون فيه: الثروة والسياسة.. والدين.. وبدأ صراع خفى بينهم وبين كهنة الآلهة الأخرى. وكان لابد ـ والأمر كذلك ـ من ثورة دينية على هذا الفساد.. فقد أحس الناس بالظلم والحاجة إلى فكر دينى واضح مريح يعلى من شأن الحقيقة والواقع.. ويتحرر من التقاليد البالية وترضى به الناس على اختلاف طبقاتهم.

وجاءت هذه الثورة على يد (أخناتون) الذى كان اسمه (أمنحوتب الرابع) نسبة إلى (آمون).. وحينما أعلن أن إلهه الذى يدعو له يسمى (آتون) بدل اسمه إلى (أخناتون) أى الراضى بآتون..

كانت صدمة قوية لكهنة آمون والآلهة الأخرى حينما أعلن أخناتون أن إلهة هذا هو الإله الواحد لا شريك له.. ورمزه الشمس بأصابعها العشرة.. إذن هو إله لم يخرج عن ميراث الأديان المصرية التى تتخذ الشمس رمزا لها..

رأى إخناتون فوضى الآلهة.. ورأى ظلم وفساد الكهنة فأعلن أن إلهه هو القوة الكامنة وراء الشمس..

وكرَّس أخناتون حياته لعقيدته الدينية والدعوة لها.. وبنى مدينته (أخيتاتون) ـ تل العمارنة ـ لتكون مقرًا لعبادة إلهه (آتون) وأخذ يمحو (آمون) ويهدم معابده.. ويقيم معابد إلهه ويروج لدعوته بأنها الحقيقية والحق.. والدين الصحيح..

ويواجه بمعارضة قوية من كهنة آمون... لكنه لم يستسلم بل وضع لنفسه فلسفة خاصة تشرح عقيدته وتفسرها على هذا النحو:

يا آتون الحى..
إنك تشرق فى أفق السماء
فإذا صعدت أفضت على الأرض جمالك
إنك تسطع بالنور على مخلوقاتك
ومهما كنت بعيدا.. فأشعتك تصل الأرض
أنت خالق الجنين فى بطن أمه
وخالق نطفة الإنسان
وواهب الحياة للكائنات
أنت الإله الأوحد لا شريك لك
خلقت الإنسان والحيوان الكبير منها والصغير
خلقت ما يدب فى الأرض وما يطير فى الفضاء
كيف لا وأنت آتون الحى..

وأطلق أخناتون على نفسه (العائش على الصدق) وبدأ يدعو إلى التوحيد وإلى الصدق فى كل شىء.. والواقعية فى الفن والحديث حتى إنه لم يقبل أن يصوره النحاتون بغير الحقيقة..

واستمر أخناتون سبعة عشر عامًا.. اختفى بعدها اختفاء مريبًا بعد أن قويت شوكة كهنة آمون وتآمروا عليه.. لينتهى عصره.. ويختفى معه إلهه آتون.. وتعود البلاد مرة أخرى إلى (آمون).

وبمناسبة الكهنة وسلطانهم.. فهم كانوا ملازمين المعابد.. وقبل دخول المعبد كان على الكاهن أن يطهّر نفسه فى البحيرة المقدسة الملحقة بالمبعد حيث يوجد الإله طوال اليوم.. وينزع الكاهن الخاتم الطّينى من على الباب ثم يدفع المزاليج فيظهر له تمثال الإله فيحييه الكاهن راكعًا على الأرض ثم يرتل الصلاة نشيدًا أو اثنين... ويقدم له العسل ويحرق المزيد من البخور..

ثم ينشر الرمل أمام تمثال الإله ويطهره بالنطرون وهذا التطهير كان الغرض منه فتح فم التمثال وعينه.. وهذا ما يسمى (طقس فتح الفم) ثم يوضع غطاء الرأس والملابس والمجوهرات على التمثال ويدهن ويزود بالرموز الملكية.. ثم تقدم وجبة على مذبح أو مائدة القرابين.

ويحمل الكهنة ألقابًا مختلفة.. حيث يلقب الكاهن الأكبر بالأعظم بين الرائين.. وأعظم الخمسة..

والاسم المصرى الدائم للكهنة هو (الخادم) ثم صار (خادم الإله). وهناك فئة أخرى من الكهنة يسمون (أب الإله) وهم فى السلم الهرمى بين (خدم الإله) و(الكهنة المتطهرين).

وكان الكهنة فى أول الأمر يعينون بواسطة الملك.. وفى عصر الدولة الحديثة شكل الكهنة طبقة خاصة فأصبحت الكهانة وظيفة مقدسة ووراثية وكان خادم الآلهة هو الذى يقود التراتيل.

وكانت سلطة كهنة أى معبود تتوقف على مكانة ودرجة ثراء المعبد.. وكان كهنة آمون هم أعظم سلطة سياسية..

أما موارد المعبد فكانت من الضرائب المدفوعة من سكان المنطقة التى يقع فيها المعبد.. وهى هبات عقارية من الأرض والماشية.. أو عمال سخرة وأسرى حرب يقدمهم الملك..

والمعابد وكهنتها معفون من الضرائب المستحقة للخزانة العامة وكذلك العاملون بالمعبد.. وكان المعبد وثروته خارج سلطة الموظفين الملكيين. وكانت الآلهة تقام لها أعياد سنوية أو موسمية..

فهناك عيد (تجلى مين) إله الخصوبة ويحتفل به مع بداية موسم المحصول أما عيد الإله (آمون) فكان له يومان.. أولهما يجىء فى الشهر الثانى من العام ويستمر 27 يوما.. والثانى فى الشهر العاشر من العام.. وفى كلا العيدين يطوف الإله فى سفينته بالنيل شمالًا وجنوبًا وحينما يصل إلى (أبيدوس) يشهد أحداث ما حدث لأوزيريس فى مشاهد تمثيلية جميلة..

وهناك أعياد أخرى تتصل بمواسم الحصاد.. والفيضان.. والزراعة وغـيرها.

تلك كانت عقائد مصر القديمة فى رحلتها مع الآلهه.. وهى كثيرة متنوعة.. يمكننا أن نلخص بعضها فيما يلى:

ـ الإله أبيس: وقد عُبد على هيئة العجل فى منف فى عصر الأسرات المبكر.. وهو رب الخصوبة ثم صار فى صورة (بتاح) ورمز إلى القوة الجسدية بجسم إنسان ورأس عجل..

ـ أتوم: ويعنى التام الكامل.. ويعتقد المصريون أنه خلق نفسه من نفسه على قمة التل الأزلى.. وقد اندمج مع الإله (رع) وعرف باسم (أتوم رع)..

ـ آتون: (الحرارة الكامنة فى قرص الشمس) وهو الإله الأوحد فى عقيدة أخناتون.

ـ آمون: (الإله الخفى) يظهر على هيئة رجل يلبس تاجا تعلوه ريشتان واندمج فى بعض الفترات برع وصار (آمون رع).

ـ أنوبيس: مثله المصريون على هيئة كلب يجلس على قاعدة تمثل واجهة المقبرة.. ومثل أيضًا على إنسان برأس كلب..

ـ أوزيريس: الذى قاسى من الشرور حتى الموت فأصبح حاكمًا لعالم الموتى.

ـ إيزيس: زوجة الإله أوزيريس وأم حورس.

ـ بتاح: يتخذ شكل إنسان بدون تحديد واضح لأعضائه.

ـ تحوت: إله القمر.. رسول الآلهة.. ورب الكتابة رمز إليه بالطائر إبيس وأحيانًا بالقرد وعبد فى الأشمونين.

جب: إله الأرض.. مثل على هيئة رجل.

ـ حابى: أو (حعبى) الإله الذى يدفع ماء النيل ليفيض.. تخيله المصريون على هيئة بشرية تجمع بين جسمى الأنثى والذكر.

ـ حتحور: وتعنى (منزل حورس) أو (مقر حورس) وتعد من أشهر الإلهات المصريات.. تمثل على هيئة امرأة تحمل تاجًا فيه قرنان بينهما قرص الشمس.

ـ حورس: (البعيد) على هيئة الصقر.. وهو رمز للملك حيا أو ميتا.

ـ رع: أهم الآلهة وأشهرها.. أدمج مع عدة آلهة أخرى.. وأخذ هيئة الإنسان.. وعُبد خالقا للكون.

تلك كانت عقائد المصريين القدماء التى تراوحت بين التوحيد والتعدد.. وصورت حيرة الإنسان من أجل الوصول إلى حقيقة الوجود...

[2]
آلهـــة إفريقيـــا


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

إفريقيا قارة كبيرة ذات تاريخ طويل.. وقد استوطنها الإنسان منذ العصور القديمة.. ومن المرجح أن تكون إفريقيا هى مهد الجنس البشرى.

وقد بدأت الحياة فى إفريقيا قبلية.. وعاش الناس على الزراعة والرعى وساد نظام الرق.. وأسواق العبيد..

وشهد قلب إفريقيا نشأة وهجرة قبائل (البانتو) منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة.. وتوزعت هذه القبائل فى إقليم البحيرات الكبرى فى إفريقيا الاستوائية.. ثم هاجرت غربًا وشرقًا وجنوبًا فاندمجت فى قبائل أخرى..

وما يعنينا هنا هو كيف نظر الإفريقى إلى الآلهة.. وما هى العقيدة التى اتبعها طوال تاريخه على هذه القارة..

والحقيقة أن هذه القارة تسودها أساطير كثيرة تعبر عن أفكار دينية تتماثل مع غيرها من الشعوب التى تصورت الآلهة والخلق والأرض والسماء.. فقد نجد اسم إله فى منطقة معينة يطلق عليه (إله الخلق) لكننا نجده فى منطقة أخرى باسم آخر.. وقد يختلف الإلهان فى بعض الصفات وفى بعض المنجزات..

والواضح أن مناطق إفريقيا ـ خاصة الوسطى والجنوبية ـ اشتهرت بتعدد الآلهة.

فالإنسان الإفريقى يتأمل الكون من حوله.. ويتصور القوى الخالقة ويسرح بخياله كما يشاء فى وضع القصص والحكايات للآلهة التى يخترعها.

وسوف تكون رحلتنا فى إفريقيا مختلفة عن رحلتنا خارج إفريقيا.. حيث نستعرض تصورات الآلهة واختلافهم فى العقيدة من منطقة إلى أخرى..

ونبدأ فيما يطلق عليه (إله السماء) أو (الإله الخالق).

ـ فهو فى منطقة غانا يسمى (أونيان كوبون) أو (الواحد العظيم) وهو إله يعيش فى السماء.. ويمكن أيضًا أن يعيش فوق الأرض..

ويعتقد أن هذا الإله كان يعيش فوق الأرض وكانت هناك امرأة طاعنة فى السن تقوم بسحق البطاطا فى الهاون مرات عديدة مما أزعج الإله.. فطلب منها أن تتوقف عن هذا الإزعاج وهددها بترك الأرض والعودة إلى السماء إذا لم تتوقف.. غير أن العجوز لم تلتفت إليه وواصلت سحق البطاطا.. فنفذ الإله تهديده وترك الأرض إلى منزله من السماء..

ـ وهو أيضًا فى (غرب إفريقيا ونيجيريا) يسمى (أولورن) وهو إله يعيش فى السماء.. وهو خالق العالم.. لكنه لا يهتم كثيرا بشئون البشر.. وقد أناب عنه (أوتبال) فى عملية الخلق وتشكيل أطفال البشر فى رحم الأمهات..

ـ وهو أيضًا (فى وسط إفريقيا) إله السماء (أوزاوا) وقد قام هذا الإله بإرسال رسالتين للإنسان فوق الأرض:

الأولى مع الضفدع وفيها: إن الموت هو نهاية كل شىء..

والثانية مع البطة وفيها: إن الموتى سوف يعودون مرة أخرى إلى الحياة..

لكن الضفدع وصل بالرسالة وفهمها الإنسان.. أما البطة فتوقفت فى منتصف الطريق ولم تسلِّم رسالتها قط..

ـ وهو أيضًا فى (بورندى) الإله الخالق (أمانا) وهو خالق الإنسان الأول الذى هبط من السماء بحبل إلى الأرض.. ويرمزون إليه بمصباح أو حمل

صغير.. وهو أيضًا يتحدث من خلال خوار الثور.. وهذا الإله خَيِّر.. يحاول أن يمنع الموت عن الإنسان.. لكنه يفشل دائمًا.

وهو فى (زائير) الإله (جوك) خالق العالم والمطر يسيطر على الميلاد.. وتقدم له القرابين من الماعز الأسود تضرعًا لسقوط المطر.

ـ وهو عند عدد كبير من قبائل إفريقيا.. الإله الخالق (ليزا) وقد صعد إلى مسكنه فى السماء على خيوط العنكبوت بعد أن علم الناس فنونًا متعددة.. وعلمهم كيف يعبدونه.. وعندما حاول الناس أن يتبعوه تسلقوا ـ مثله ـ خيوط العنكبوت لكنها انقطعت وسقطوا على الأرض..

وهذا يعنى أن الإله فى السماء والبشر فوق الأرض..

ـ وهو أيضًا فى مناطق أخرى (ليف) إله السماء.. وكان فى البداية يستجيب لأى طلب يطلبه الجنس البشرى.. لكنه سرعان ما اكتشف جشع وطمع البشر.. فتركهم.. وطالبهم ـ لكى يرضى عنهم ـ أن يعملوا.. ويجتهدوا.. ووعدهم بتحقيق رغباتهم لو فعلوا ذلك..

ـ وهو فى (وسط إفريقيا) إله خالق يسمى (ليبانزا) وكان هو وزوجته يشكلان أعظم إلهين.. ثم هبطا إلى الأرض.. وهو يعيش فى أعماق نهر الكونغو يجلب الطوفان للرخاء.. وهو محسن خير..

وتقول الأسطورة كذلك إنه استدعى ذات يوم سكان القمر وسكان الأرض.. فحضر سكان القمر مسرعين على حين تراخى سكان الأرض فكافأ الإله سكان القمر قائلا: لن تموتوا أبدًا لأنكم حضرتم فى الحال. وسوف يكتب عليكم الموت يومين فقط كل شهر وما ذاك إلا للراحة فحسب.. ثم تعودون بعدها أكثر تألقًا مما كنتم..

وعندما وصل سكان الأرض متأخرين قال لهم: سوف تموتون يوما ما ولن تعودوا إلى الحياة مرة أخرى إلا عندما تأتون إلى.

ويعتقد الإفريقيون أن هذا هو السبب فى أن القمر يموت مرة واحدة فى الشهر لمدة يومين.. يعود بعدها إلى الحياة.. وأن البشر عندما يموتون لا يعودون للحياة.. بل يصعدون إلى ليبانزا فى السماء.

ـ وهو فى (زمبابوى) الخالق الأكبر (مورى) خلق الرجل الأول والمرأة الأولى.. وأعطى (مورى) الرجل قرنا مملوءًا بالزيت السحرى وبعث به إلى أعماق البحيرة.. غير أن الرجل اشتكى للإله وطلب منه أن يعيش فوق الأرض.. ووافق الإله وعندما صعد الرجل من البحيرة إلى الأرض وجدها مهجورة مهملة بلا نباتات حية.. وعندما رآه الإله مكتئبا أشفق عليه وخلق له المرأة الأولى وأعطاها موهبة استخدام النار.. ثم بدأت الحياة النباتية تدب فوق الأرض.. ثم ماتت المرأة فخلق الإله له امرأة أخرى هى (نجمة المساء) لتحل محل المرأة الأولى.. وأنجب الزوجان الأغنام والماعز والماشية والدجاج والأسود والنمور والعقارب والثعابين.

ـ وهو أيضا (ماوليزا) وهو إله مزدوج الجنس (جانب منه مذكر وجانب آخر مؤنث).

ويعتقد أنه المصدر الأساسى لجميع الآلهة الأخرى.. كل توأم من أطفالهم يعطى منطقة ليحكمها..

وقد ارتبط ليزا التوأم بالشمس وهو الذكر ورفيقته الأنثى (ماو) ارتبطت بالقمر وأعطى التوأم الأول الأرض ليحكمها.. وكذلك البحر والطقس والصيد..

وكانت (ماو) رقيقة تمثل الحكمة.. و(ليزا) يمثل القوة والقسوة..

ونكتفى هنا بذكر الإله الخالق.. وواضح أنه يوجد فى كل منطقة إفريقية وتدور حوله الأساطير.. وكان يعبد فى كل منطقة عبادة خاصة وتقدم له القرابين.. ويحتفل به فى أعياد سنوية..

ونفهم من ذلك أن العقيدة القديمة فى إفريقيا تمتزج بالأسطورة.. وأيضًا بالحس الشعبى.. والآلهة لديهم قد تعيش فى السماء وقد تشارك البشر فوق الأرض.. وهى تغضب وتنتقم وترضى وتسامح.. وهى خالقة هذا الكون.. وخالقة البشر.. وكل إله له طريقته فى الخلق لكنهم جميعا يطلقون على كل منهم: إله السماء ـ أو الإله الخالق ـ أو ملك السماء وكلها مسميات متقاربة.. تخضع لتصورات البشر..

وكما هى الحال لدى الشعوب القديمة.. فقد نظر الأفارقة القدامى إلى الطبيعة من حولهم وتصوروا أن لكل ظاهرة فيها إلها يتحكم فيها.. ومن ذلك مثلًا:

ـ الإله (مالى) ويسمى إله النهر فى غرب إفريقيا وهو الإله الذى منح العالم النظام.. وهو الجد لسلالة السمك فى نهر النيجر أما عدوه اللدود فهو إله رياح الصحراء (تليكو).

ـ الإله (أبومو) وهو إله الرعد (جنوب نيجيريا) وبالرغم من أنه فى اعتقادهم يسكن السماء. فإنه بعيد عن البشر يترك رعايتهم لغيره. ويقوم بالتوجيه وتنظيم الأحداث الكبرى..

وفى بداية فصل المطر.. يحدث الرعد ويهبط (أبومو) فى صورة صقر ليصيد السمك لزوجته الأرضية (أكاباسى).

ـ والإله (أوكو) إله الزراعة.. فقد هبط من السماء وعاش فى مزرعة قرب مدينة (أيرو) بنيجيريا.. وبلغ من العمر عتيا ثم اختفى ولم يترك سوى عصاه التى اعتبرها رمزًا للخصوبة.. ويقام له احتفال سنوى مع بداية موسم المطر.

ـ والإله (إنكايمبا) هو إله العواصف عند قبائل الزولو الإفريقية.. وهو المسئول عن الأعاصير ويصور على هيئة ثعبان هائل يلتف من السماء إلى الأرض.. وهو أيضًا إله المياه والطوفان.

ونفهم من هذا أنها آلهة تعبد لكى لا تغضب على البشر، ولكى تيسر لهم الحياة والخير..

ولم تقتصر العقائد الإفريقية على هذه الآلهة لكنهم أيضًا تصوروا آلهة أخرى مستمدة من حياتهم اليومية وصراعهم من أجل البقاء.. ومن ذلك مثلا:

ـ الإلة (أوجن) وهو إله الحرب فى غرب نيجيريا.. وهو أيضًا إله الحديد.. وهذا الإله يعتقدون أنه هبط من السماء إلى الأرض على خيوط العنكبوت ممسكا فى يده الفأس الحديدية.. وهو راعى الحدادين والصيادين.. وظلت تقدم إليه الأضاحى البشرية سنوات طويلة.. كما كان يضحى له الحدادون بالكلاب كل أسبوعين.. ويقام له عيد كل عام يستمر ثلاثة أيام يرقصون فيه ويأكلون الكلاب.

ـ الإله (أوى) وهو إله المرض فى غرب كينيا.. فهو يبعث الروح بالأمراض الشخصية والأوبئة كالطاعون.. فإذا مرض شخص أخلى منزله.. وجاء الكاهن يتلو التعاويذ ليطرد هذه الروح من البيت.

ـ الإله (أورنميلا) وهو إله المصير فى غرب إفريقيا.. وهو الابن الأكبر لإله السماء.. تقام له أضرحة فى البيوت تحتوى على بلح ومحار البحر.. وقطع من العاج..

ـ والإله (أجيوى) هو إله الموت فى (بنين بغرب إفريقيا) ويعتقدون أنه يمتلك دماء جميع الكائنات الحية التى يلطخ بها جدران قصره فى العالم الآخر.

ويقدمون له القرابين من الضحايا البشرية بشكل منتظم..

ـ أما الآلهة الأبناء:

فهم جيكويو ـ ومسّاى ـ وكامبا ولكل منهم قبيلة فى كينيا ويعتقدون أن الإله الأكبر كان يعيش فوق جبل كينيا.. فقدم لأولاده ثلاثة خيارات..

فاختار جيكوبو عصا الحرث فصارت قبيلته من المزارعين.

واختار مسّاى القوس فأصبحت قبيلته من الصيادين

واختار كامبا الرمح فصارت قبيلته من الرعاة..

وهناك معتقدات طريفة حول قصة الخلق وحول علاقة الآلهة بالشر.. وغيرها من التصورات التى استراح لها عقل الأفارقة.. من ذلك مثلا:

أن (تومو) يمثل الإله التوأم فى (مالى) أحدهما ذكر والآخر أنثى ظهرا عندما اتحد الإله (أما) مع الأرض..

ويعتقدون أن الإله (أما) فى البدء كان وحيدًا فاقترب من الأرض (الأنثى) وعاشرها.. غير أن هذا الاتحاد كان يعوقه فى البداية تل من النمل الأحمر الذى لابد من إزالته.. ومن هنا فبدلًا من إنجاب التوأم ولد ابن آوى.. فاتحد (أما) من جديد بالأرض فولدا التوأم.. وكان أشبه بمخلوقات البحر بشعر طويل أخضر.. نصفهما الأعلى آدمى ونصفهما الأسفل على هيئة ثعبان البحر.. لهما لسان كالشوكة وعيون حمراء..

وجلبا إلى الأرض بعض النباتات السماوية ليستخدما أليافها فى صنع الملابس.. ثم قام ابن آوى باغتصاب الأرض.. لكن التوأمين حرصا على ولادة التوائم حتى تعمر الأرض بالكائنات..

ومن الأساطير المرتبطة بالعقائد أيضًا حكاية المخلوق (أنانسى) وهو مخادع محتال يتحول إلى عنكبوت ويعرف بأسماء أخرى مثل: (جيزو) و(كوكو)

كان أنانسى يتباهى بأنه على قدر ذكاء الإله نفسه.. فلما بلغ الإله ذلك أرسل فى طلبه.. وطلب منه أن يحضر له شيئا ما.. ولم يذكر له هذا الشىء..

لكن الأنانسى تحير فى الأمر وأخذ يفكر فى مخرج.. وأخيرًا جمع عددًا من الطيور وأخذ من كل منها بعض الريش وتشكل من هيئة طائر عجيب.. ووقف على شجرة أمام بيت الإله.. فلما خرج الإله من بيته ورأى هذا الطائر سأل أتباعه: ما اسم هذا الطائر ومن أى الأنواع هو؟

ولم يستطع أحد أن يجيب.. وقالوا له، لن يعرفه سوى الأنانسى.. ولكن الإله قال: لقد أرسلته ليحضر لى شيئا ما ولم يعد.. فلما سألوه: ما هذا الشىء الذى تريد أن يحضره.. قال: الشمس والقمر والظلام..

فلما سمع الأنانسى ذلك أسرع وأحضر حقيبة كبيرة وذهب إلى (بيتون) الوحى الذى يعرف مكان هذه الأشياء وأحضرها إلى الإله ووضع الظلام أمامه فلم ير الناس شيئا.. فقط أظلمت الدنيا.. ثم أخرج القمر.. فرأى الناس قليلا..

ثم أخرج الشمس وكانت باهرة الضياء فأصابت الناس بالعمى.. وهكذا دخل العمى إلى العالم.. لكن بعض الناس كانت عيونهم مغلقة فلم تصبهم الشمس بأى أذى.

ـ ومن الأساطير المرتبطة بالعقائد أيضا أن نبيًّا يدعى (لونج ـ جوجو) كان يجلس فى كهف ـ على حدود نيجيريا.. ويقف زواره فى مياه جدول صغير يجرى أمام الكهف.. يسألونه وهو يجيب.

وكان هذا النبى يزعم أنه قادر على أن ينبئ الناس إذا كانوا مذنبين أم أبرياء..

فمن كان مذنبًا يؤخذ ويباع فى سوق العبيد.. ومن كان بريئًا يتركه لحاله..

وهكذا ترتبط العقائد الإفريقية بالأساطير وتفسر كثيرًا من الحيرة التى كان يشعر بها الإنسان فى هذه البيئة التى تشكو حرارة الشمس.. وهطول المطر.. وغموض الحياة.

ولهذا فإن العقائد الإفريقية جاءت نتيجة تأملات الإنسان فى الطبيعة.. ورغبته فى إرضاء هذه القوى الخارجية التى يمكن أن تقتله وتقضى عليه..

وكما ترى فقد تعددت الآلهة.. وتعددت وظائفها وأعمالها وبدأ الإنسان يفسر كل شىء بوجود إله يتحكم فى غموض هذا الوجود.


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

[3]
الــــزرادشتيـــة

كانت إيران القديمة بلدًا تفد إليه القبائل الهمجية من كل مكان.. فقد كانت غنية بمحاصيلها الزراعية ومواشيها.. ولهذا كانت مطمعًا من جيرانها مما جعل أهلها يعيشون حياة مضطربة.. يملؤها الخوف من اللصوص والقبائل التى تهاجمهم...

وكان الإيرانيون يعبدون عددًا كبيرًا من الآلهة.. فعبدوا الشمس لأنها تنضج محاصيلهم وأطلقوا عليها: (ميثرا).. وعبدوا إلهة الأرض والخصب وسموها: (أنيتا).. وعبدوا الثور الذى مات ثم بعث حيا.. ووهب الجنس البشرى دمه شرابًا يمنح الخلود وأطلقوا عليه (هوما).. وكذلك عبدوا إله المطر.. وإله السحاب.. وإله الريح.. وهى كلها آلهة الطبيعة التى تمنحهم الحياة وتساعدهم على تحصيل الرزق.. وتمثل لهم آلهة الخير..

وطبيعى أن يمثلوا هذه الآلهة فى أشكال وأصنام ينحتونها من الصخر ويشكلونها من الطين.. ويرسمونها فوق ألواح الخشب.. بل إن أغنياءهم كانوا يصنعون أصنامهم من الذهب والفضة.

وكان الكهنة فى معابدهم يمثلون الوساطة بين الناس والآلهة.. واشتهروا بالسحر والسيطرة على أقدار البشر..

وفى مدينة أذربيجان ـ غرب بحر قزوين ـ كان يعيش رجل اسمه: (بوروزهازيو) مع زوجته (دوغدوما).

وذات يوم كان الرجل يرعى ماشيته فوق ربوة عالية.. ثم جلس يستريح فى ظل شجرة.. فتراءى له شبحان نوريان.. قدما له غُصْنا من نبات الهوما المقدس.. وطلبا منه أن يقدم هذا الغصن إلى زوجته.. لأنه يحمل بذرة الطفل الروحانى..

وعلى الفور ساق الرجل ماشيته بسرعة عائدًا إلى داره.. وحكى لزوجته ما حدث.. ومزج الغصن باللبن وشربه هو وزوجته فحملت بطفل سمياه (زارافوشترا) والذى عرف باسم (زرادشت)..

وفى عام 660 ق. م ولد الطفل.. ولاحظ أبوه أنه لم يبك كما يبكى الطفل ساعة ولادته.. لكنه قهقه بصوت عال.. وغمر البيت نور إلهى عجيب وتحكى الأساطير روايات كثيرة عما حدث بعد ولادة زرادشت..

وتقول إحدى هذه الروايات إن كبير الكهان ارتعد خوفًا حين علم بأن طفلًا قد ولد.. وأنه سوف يقضى على السحر وعبادة الأصنام.. وعلى الفور أرسل الكاهن الأكبر ثلاثة من معاونية لإحضار زرادتشت فى معبد النار.. وحين جاءوا به.. ألقاه الكاهن فى النار.. وخرج هو ومن معه خارج المعبد سعداء بهذه النهاية..

وأسرعت الأم إلى المعبد.. وهناك على المذبح.. وجدت طفلها يلعب فى سعادة وسطِ اللهب وكأنه يعبث فى حمام دافئ..

وعلم الكاهن بالأمر فازداد غيظا.. ودبر حيلة أخرى.. فأمر أعوانه بإحضار الطفل مرة أخرى.. ثم وضعه وسط الطريق العام حيث يمر قطيع كبير من الماشية.. فيدهسه وينتهى أمره..

ووقف الكاهن ومعانوه يشهدون ما يحدث.. فإذا بأول بقرة تحنو فوق الطفل لتحميه من بقية القطيع.. وظلت هكذا حتى جاءت أمه وأخذته.. وعادت به فى أمان..

لم ييأس الكاهن.. وقرر أن يسرق الطفل للمرة الثالثة ويضعه فى وكر الذئاب.. فإذا لم تقتله الذئاب.. فسوف يموت جوعًا.. لكن الذئاب حينما رأت الطفل عجزت عن الاقتراب منه.. ثم ظهرت عنزة وراحت ترضع الطفل..

هذه واحدة من الأساطير التى دارت حول زرادشت الطفل.. وهى تدل على أنه لم يكن طفلًا ككل الأطفال.. ولهذا بدأ أبواه يعلمانه أفضل تعليم.. وحينما بلغ السابعة من عمره درس الحكمة على يد الحكيم (بورزين كوروس) وظل ملازمه ثمانية أعوام تعلم فيها الكثير من أمور الحياة.

ونظر زرادشت إلى الناس فى بلده فوجدهم فقراء مساكين.. فتطوع فى خدمتهم وأخذ يشير عليهم بوسائل مختلفة يكسبون بها رزقهم..

لكن آلام الناس وأحزانهم كانت تزداد يوما عن آخر..

وهنا ثار فى عقل زرادشت سؤال: من أين تجىء كل هذه الشرور إلى البشر.. وكيف يتحقق الخير والسعادة للعالم.؟

كان زرادشت قد عمل بنصيحة أبيه وتزوج من امرأة صالحة.. ولكنها لاحظت عليه تلك الحيرة.. كما لاحظت أنه يفضل العزلة عن الناس وكثيرًا ما كانت تجده غارقًا فى التفكير العميق.

وفجأة.. قام زرادشت من عزلته.. ودخل على زوجته وقال لها:

ـ أريدك أن توافقينى على ما أقوله الآن.. سوف أودعك بعض الأيام وأعيش ناسكًا بعيدًا عن الناس.. فأنا فى حاجة إلى معرفة الحقيقة.. أريد أن أفكر فى الخير وفى الشر..

وحاولت الزوجة أن تقنعه بالجلوس فى البيت بدلًا من الخروج منه لكنها لم تستطع..

وخرج زرادشت وغاب أيامًا وأسابيع وشهورًا يتنقل من جبل إلى جبل.. ومن كهف إلى كهف محاولًا معرفة سر الوجود..

وتذكر كل ما تعلمه من أستاذه الحكيم.. ومن قبل ما تعلمه من أبيه.. وتذكر زوجته وأطفاله.. وكاد يقتنع بفشله فى الوصول إلى الحقيقة..

وجلس ذات يوم فوق قمة الجبل فى أثناء غروب الشمس.. وأخذ يرقبها وهى تغيب شيئًا فشيئا.. ويحل الظلام مكان النور.. والليل مكان النهار.. وتنبه إلى حقيقة أن الحياة جانبان: خير وشر.. ونور وظلام.. لكن لا يمكن للخير أن يتحول إلى شر.. ولا يمكن للنور أن يتحول إلى ظلام.. فالخير خير خالص.. والشرّ شر.. وكذلك النور والظلام.. إذن كيف للكهنة أن يقنعوا الناس بالصلاة إلى آلهة الخير.. لكى يوقعوا الشر بأعدائهم.. وكيف يتقرب الناس لآلهة الشر لكى تصنع خيرا.. لابد أن هؤلاء الكهنة يخدعون الناس.. فآلهة الخير لا تصنع إلا خيرًا وآلهة الشر لا تصنع إلا شرًا.. تلك هى الحقيقة الواضحة..

وينتهى زرادشت من تفكيره إلى أن العالم تحكمه قوتان: الخير والشر.. ويتجلى الخير فى الإله (أهورامزدا) أما الشر فقوته فى (أهرمان).

وبدأ زرادشت يدخل فى حالة من التأمل العميق.. والنشوة القلبية المضيئة.. جتى حان وقت دعوة الناس إلى أفكاره وعقيدته..

إنه يدرك أن عبادة الأصنام التى تسود بلاده عبادة خاطئة.. وأن إله الخير وإله الشر اللذين يتحدث عنهما لا يمكن رؤيتهما أو سماعهما.. فكيف إذن يقنع الناس بما لا يلمسونه ولا يرونه ولا يستمعون إليه.. ويقال إن إلهه (أهورامزدا) لم يتخل عنه.. بل ظهر له متجليًا ليلقنه كتاب الحكمة.. وأسرار الحياة..

وظل عشر سنوات محاولًا دعوة أهله وقومه لكن أحدًا لم يجب ولم يقتنع بما يقول..

لكنه استطاع فى هذه السنوات أن يكتب تعاليمه فى كتابه (أفستا) والذى يحتوى على خمسة أجزاء:

1- ياسنا: وهو عبارة عن سفر يحوى تعاليم زرادشت وترانيم دينية أخرى .

2- فسبرد: وهو جزء مخصص للترانيم الدينية فقط.

3- فنديداد: ويتضمن طقوس العبادة وتعاليم أخلاقية.

4- ياشت: وفيه آيات وتراتيل فى مدح الآلهة وترانيم أسطورية.

5- خوردأفستا: وهو كتاب للعبادات الفردية والخلاص الفردى.

ونفهم أن الزرادشتية تنكر عبادة الآلهة العدة وعبادة الأصنام. وتؤمن بالإله الأوحد (إله الخير) وتجعل له إلها آخر مضادًا له وهو إله الشر..

كما تؤمن الزرادشتية بأن بالعالم قوة كبرى هى قوة الخير.. وهى قوة إلهية إيجابية خالقة.. وهى مصدر النور المتجدد والحياة الفاضلة.. لكن العالم به قوة أخرى هى قوة الشر.. وهى قوة سالبة.. تسودها الظلمة والموت والخراب..

والإنسان بذلك مخيَّر فى اتباع الطريق الذى سيسلكه.. فإذا اتبع طريق إله الخير استطاع بعد موته أن يعبر جسر (كنفات) إلى حيث يجد ثوابه ونعيمه.. أما إذا سلك طريق الشر وحاد عن طريق الخير.. فسوف يقع من فوق هذا الجسر فى (بيت الأكاذيب) حيث العذاب والشقاء..

ويؤكد زرادشت أن الإنسان هو المالك لطريقة خلاصه.. فإذا أطاع أوامر الإله (أهورامزدا) سيد العقل.. فسوف يفوز بالنجاة.. أما إذا اتبع أوامر الشيطان الأكبر (أهرمان) فسيعاقب عقابًا عسيرًا.

وزرادشت يعظم الأقمار والكواكب والنجوم لأنها مظاهر الأنوار الأحدية وخاصة الشمس لاعتقاده أنها مصدر النور والحرارة وهما أصل مادة الحياة وأعظم واسطة عند الإله، ولولاها لما وجد كائن حى فى العالم.

إن الإله (أهورامزدا) يتكون اسمه من ثلاثة مقاطع (أهو) و(را) و(مزدا) ومعناها على الترتيب: أنا ـ الوجود ـ خالق ـ أو أنا خالق الكون.. هى إذن ديانة تقترب من ديانة التوحيد لولا قول زرادشت بوجود الإله الآخر (أهرمان) إله الشر..

وهذه الديانة تقدس الشمس والنار.. لكنها لا تدعو إلى عبادتهما.. فعنصر الشمس يدل على النور.. وعنصر النار يدل على اللمعان والتطهير.. فهما رمزان لتلك القوة التى تفيض رحمة ونورًا..

وكان زرادشت قد دعا إلى أداء خمس صلوات فى اليوم.. والصلاة عنده دعاء يوجه إلى (أهورامزدا) فى شتى المناسبات وخلاصته:

(أرجو منك أيها الرب الخالق المطلق القدير..

أن تغفر لى ما ارتكبت من قول أو عمل غير صالح..

إلهى.. أرجو منك أن تباعد بينى وبين الخطايا..

حتى أحشر يوم الدين مع الأطهار الأخيار..)

وخلاصة تعاليم زرادشت أنه ينكر الوثنية ويجعل الخير المحصن من صفات الإله.. وينزل بإله الشر إلى ما دون منزلة المساواة بينه وبين الإله الأعلى.. ويبشر بالثواب والعقاب..

ويسأل زرادشت ربه قائلًا:

ـ يا هرمز الرحيم.. يا صانع الوجود المشهود.. يا أيها القدس الأقدس: أى شىء هو أقوى القوى جميعا فى هذا الملكوت؟ فيرد عليه الإله بقوله:

ـ إنه هو اسمي الذي يتجلى في أرواح عليِّن.. فهو أقوى القوى في عالم الملكوت.

فيسأله زرادشت أن يعلّمه هذا الاسم..

فيقول له الإله: إنه هو السّر المسئول.. وأما الأسماء الأخرى فلك أن تعرفها وهي: واهب الإنعام.. المكين.. الكامل.. القدس.. الشريف.. الحكمة.. الحكيم.. الخير.. الخبير.. الغني.. المغني.. السيد.. المنعم.. الطيب.. القهار.. محق الحق.. البصير.. الشافي.. الخلاق.. هو مزدا أو العليم بكل شيء..

وفي مذهب زرادشت أن الإله خلق الدنيا في ستة أدوار: فبدأ بخلق السماء.. ثم خلق الماء.. ثم خلق الأرض.. ثم خلق النبات ثم خلق الحيوان.. ثم خلق الإنسان..

تلك هي خلاصة الزرادشتية التي تتعارض مع الوثنية وعبادة الأصنام.. ولهذا وجد زرادشت معارضة شديدة من الكهنة ومن الناس.. ولم يؤمن به ـ بعد عشر سنوات ـ إلا ابن عمه (ميتيوماه) الذي قال له:

ـ إن تعاليمك شاقة جدا على فهم الناس.. وعليك أن يؤمن بها أحد الكبار أولًا والمتعلمون ذوو العقل والفكر..

وانطلق زرادشت إلى (بلخ) ليشرح عقيدته إلى الملك (كاشتاسب) لعله يحقق انتشارًا لعقيديه

فبعد رحلة طويلة شاقة وصل زرادشت إلى مقر الملك.. وقد غطى تراب السفر قدميه وثوبه.. فقال لحارس القصر:

ـ اذهب إلى مولاك الملك وأخبره أن زرادشت نبي الإله الأوحد الحكيم قد جاء ليعلمه طريقي الخير والشر.

وهنا نظر الحارس إليه فى ريبة وانفجر ضاحكا.. وقال:

ـ لعلك رجل فقير جئت تطلب حاجة.؟

لكن زرادشت قاطعه بحزم:

ـ قلت لك اذهب وافعل ما آمرك به..

وارتعد الحارس.. لكنه لم يجرؤ على الحركة أو تنفيذ أوامر زرادشت.. وهنا أمسك زرادشت بيده كرة من النار ورفعها فى وجه الحارس وهو يقول:

ـ لتكن هذه علامتى ودليلى على أنى جئت باسم الإله الحكيم.. فدخل الحارس على الملك فى حالة من الذعر واقتحم المجلس وصاح:

ـ مولاى بالباب رجل عجيب يريد أن يراك.. ويدعى أنه جاء باسم الإله الحكيم.. ويمسك فى يده بكرة من النار لكنها لا تحرقه.. وتعجب الملك.. وأمر الحارس بإدخال زرادشت..

ويدخل زرادشت فيرى الملك ومن حوله الكهنة والأتباع.. فصاح بأعلى صوته:

ـ أنا زرادشت سبتاما نبى الإله الواحد الحكيم. جئت إليك لأدعوك إلى ترك عبادة الأصنام الشريرة والدخول فى طاعة إله حق حكيم خالد..

وتعجب الملك ثم قال متحديًا:

ـ كيف تثبت صدق دعواك يا رجل؟

قال زرادشت: إذا شئت أنت أو حكماؤك أن تسألونى فسأرد على أى سؤال بما يثبت خطأ عبادتكم..

وهنا أشار الملك الى كهانه وحكمائه أن يتحاوروا مع زرادشت:

وقبل أن يبدأ الكهان والحكماء قال زرادشت:

ـ هل تعدنى أيها الملك إذا تحققت كلماتى أن تستجيب لدعوتى.. فوعده الملك.. وبدأت المناقشة..

قال كبير الكهنة: ماذا عن هذه العقيدة التى تدعو إليها وتخالف عقيدة الآباء؟

قال زرادشت: لم أجئ بعقيدة جديدة.. ولكن لتصحيح عقيدة قديمة.. ما جئت به هو أن الإله خير.. والأصنام شر..

قال الكاهن: أتعنى أن الشمس والنار والجبال والنجوم آلهة زائفة شريرة؟

قال: هى ليست آلهة على الإطلاق بل هى من صنع الإله الخالق..

قال أحد الحكماء: ومن هو هذا الإله الخالق؟

قال: إنه (أهورامزدا) إله الحكمة والحاكم الأسمى للعالم. .

قال حكيم آخر: وتقول إنه خلق كل شىء فى العالم؟

قال: خلق كل خير فى العالم لأنه إله الخير..

قال الحكيم: إذا كان هو قد خلق الخير فمن الذى خلق الشر؟

أجاب زرادشت: إنه (أهرمان) روح الشر..

وهنا صاح الكاهن الأكبر: إذن هناك إلهان أو أكثر للعالم..

أجاب زرادشت بهدوء:

ـ إن الصراع بين الخير والشر دائم مستمر.. ولقد انتصر الخير على الشر فخلق أهورا الأرض بكل ما فيها من خير.. ليكون الإله الأوحد للخير.. وقد انتصر الخير لأن الشر ليست له بصيرة..

وهنا سأله الملك: وما نتيجة ذلك؟

قال زرادشت: إن يوم الحساب قريب يا مولاى.. حيث يبعث الإله الموتى ليعبروا الجسر إلى النعيم أو الجحيم.. وفى ذلك اليوم الخالد يبدأ العالم السعيد الخير الذى لا شر فيه..

وهنا صمت الجميع وتوقفت الأسئلة.. لكن كبير الكهان سأله فجأة:

دُلَّنا على الطريق.؟

قال: الأفكار الطيبة والأعمال الصالحة.. والكلمات الطيبة.. فالصدق خير وصالح.. والكذب شر وباطل.. وثواب الأعمال الطيبة يكون فى الدنيا والآخرة. وهذا طريق الإيمان..

وهنا أعلن الملك قبوله لدعوة زرادشت وعقيدته.. وتكاثر الأتباع.. وانهزم الكهنة والسحرة وعبدة الأصنام..

لكن الكهنة ـ كما اعتادوا ـ لا يقبلون الأمر بهذه البساطة فتآمرا على زرادشت ودسّوا له فى غرفته رؤوس قطط وكلاب ميتة وعظامًا وأظفارًا مما كان يستخدمه السحرة فى تلك الأيام.. وأخبروا الملك بأن زرادشت ساحر مشعوذ يحتفظ بهذه الوسائل السحرية.. وبالفعل نجحت المؤامرة وسجن الملك زرادشت.. وأمر الناس بالعودة إلى عقيدة الآباء والأجداد..

ويظل زرادشت فى محبسه يتعبد لإلهه.. ويبكى.. حتى جاء يوم المعجزة..

كان الملك لديه حصان أسود يحبه كثيرًا.. وحدث أن أصيب الحصان بالشلل فى قوائمه الأربعة حتى إنه لم يعد قادرًا على الحركة.. ودخلت قوائمه فى بطنه ولم يعد يظهر منها سوى الأطراف..

ويفشل كل أطباء المملكة فى علاج الحصان..

وبلغ الخبر زرادشت وهو فى ظلمات السجن.. فأرسل إلى الملك بأنه يستطيع علاج الجواد..

وأمر الملك بإحضار زرادشت.. فقال له زرادشت:

لو أننى نجحت فى علاج حصانك الأسود فماذا تكون مكافأتي؟

قال الملك: المهم أن يعود الحصان كما كان ولك ما تريد مهما كانت طلباتك..

وهنا قال زرادشت:

ـ لو أن الملك وافق على شروطى الأربعة سأقوم بعلاج الحصان..

قال الملك: وما هذه الشروط..

قال زرادشت: أولًا: أن يدخل الملك فى الدين الجديد..

وثانيًا: أن يناضل الملك فى سبيل نشر هذا الدين..

وثالثًا: أن تدخل الملكة أيضًا فى الدين الجديد..

ورابعًا: أن يحقق الملك فى المؤامرة التى أدخلتنى السجن ويعاقب القائمين عليها..

ووافق الملك..

وكلما تحقق شرط من هذه الشروط شفيت إحدى قوائم الحصان حتى شفى تماما وعاد كما كان..

واعترف الحارس الذى كان يحرس غرفة زرادشت بتفاصيل المؤامرة.. وكشف عن المتآمرين.. فقبض عليهم جميعًا وألقى بهم فى السجن.. وعادت الزرادشتية مرة أخرى تنتشر بعد أن اعتنقها ثانية الملك وأسرته وحاشيته..

وأخذ زرادشت يحث أتباعه على القتال فى سبيل الإله الحكيم وذلك باتباع ست خصال حميدة هى:

- طهارة الفكر والكلمة والعمل.
- النظافة والبعد عن كل ما دنس.
- الإحسان بالفعل والقلب.
- الرفق بالحيوانات النافعة.
- القيام بالأعمال النافعة.
- مساعدة الذين لم يتيسر لهم تحصيل العلم بتعليمهم.

أما كيف مات زرادشت فهناك روايات تشبه الأساطير منها أن زرادشت مات وهو راكع يصلى..

وتقول رواية أخرى: إنه عمر طويلًا حتى أحرقه وميض برق ثم صعد إلى السماء.. ولم يره بعدها أحد..

وكانت الزرادشتية قد انتشرت فى إيران وأصبحت الديانة الرسمية للدولة.. غير أن مُزدك الزعيم الدينى الفارسى المتوفى عام 528م سرعان ما قاد حركة مناهضة وأسس المزدكية (وهى مشتقة من المانوية) وهى ديانة تقول بمبدأين أصليين هما الخير (أو النور) والشر (أو الظلام) وأن الخير يعمل بإرادة حرة وتصميم.. وأن الشر يعمل على نحو أعمى.. وكيفما اتفق.. وأن هذين المبدأين امتزجا مصادفة فكان العالم..

كما دعت المزدكية كذلك إلى المشاركة فى الأمراء والنساء.. وانتشرت انتشارا واسعًا فى أواخر القرن الخامس للميلاد.. غير أن كهنة الزرادشتية ونبلاء فارس ثاروا على المزدكية ومبادئها بشدة وعادت الزرادشتية إلى مكانتها مرة أخرى..

أما الآن فلم تعد الزرادشتية معروفة إلا فى مواطن معزولة من إيران.. وفى بعض مناطق الهند.. حيث تعرف بالباريسى.. ويفوق عدد أتباعها مائة وعشرين ألفا.. وفى إيران يبلغون عشرين ألفا فقط.

وتمضى الأيام.. وبعد ثلاثمائة عام من موت زرادشت غزا الإسكندر الأكبر أرض فارس وحكم الأفستا.. وأقام بدل الزرادشتية عقيدة اليونان..

وحينما استقلت فارس بعد خمسمائة عام أعادوا تعاليم زرادشت مرة أخرى.. وجمعوا أجزاء الأفستا فى كتاب واحد.. وبنيت معابد جديدة للنار.. وبقيت مشتعلة رمزًا للإله الحكيم الخالد..

وحينما دخل الإسلام بلاد فارس.. فضل عدد كبير من الفرس اعتناق الإسلام.. وهرب الآخرون على حدود فارس بعقيدتهم الزرادشتية..

هذه هى عقيدة الزرادشتية التى تقوم على ثنائية الخير والشر.. ويحسن بنا أخيرًا أن نختم ببعض تأملات زرادشت ومناجاته لإلهه:

اصدقنى الخبر أيها الإله أهورامزدا

من ذا الذى رسم مسار الشموس والكواكب

ومن ذا الذى جعل القمر يتزايد ويتناقص..

ومن الذى رفع الأرض وفوقها السماء..

ومن الذى سخر الرياح والسحب

ومن الذى أخرج العقل ـ الخير..

إنه أنت يا واحد يا أهورامزدا..

[4]
عقائد ما بين النهرين



عندما نذكر منطقة (ما بين النهرين) فنحن نقصد تلك المنطقة الشرقية للهلال الخصيب الذى يمتد من الخليج العربى حتى فلسطين.. وتحده الصحراء الغربية فى الجنوب.. والجبال الشاهقات فى الشمال.

والهلال الخصيب كان حلم القبائل التى عانت جدب الصحراء.. حيث يقل الماء.. وينعدم العشب للماشية.. والنبات للإنسان.

ولهذا وجدنا مدنيات كثيرة تتابعت على امتلاك الهلال الخصيب ما بين نهرى دجلة والفرات.. وكثيرًا ما تقوم دولة على أنقاض أخرى حين تنتصر عليها فى الحرب..

ويمكن أن نذكر بالتقريب هذه المدنيات فى التواريخ الآتية:

- مملكة سومر وبابل من 4000 حتى 2000 ق.م
- مملكة الحيثيين من 1900 حتى 1200 ق.م
- عصر الدويلات من 1200 حتى 750 ق.م
- مملكة آشور من 750 حتى 600 ق.م
- مملكة الكلدانيين من 600 حتى 538 ق.م
- مملكة الفرس من 550 حتى 330 ق.م

وما يهمنا هنا هو متابعة العقائد السائدة فى هذه المنطقة الخصيبة وتصورات أهلها عن الآلهة وقصة الخلق والعالم الآخر..

لقد كانت الآلهة عند السومريين هى التى خلقت العالم.. ولم يكن يهم الآلهة النضال من أجل السلطة.. وإنما النضال من أجل العبادة..

وتتميز هذه العقيدة بقلة الآلهة..

- فإله السماء (أونو) يمثل مركز الصدارة بين معبودات العراق القديم وهو أبو الآلهة..

والإله السومرى يقطن فى معبده المرتفع ويحكم مدينته.. فهو مالك الأرض.. وكبير التجار..

وقد عرف السومريون فى آلهتهم خصائص البشر.. فهم مثل البشر يأكلون ويشربون ويفرحون ويرقصون.. ويسمعون الموسيقى.. وينامون ويتناسلون. ثم نجد الإله (إنليل) وهو إله الريح والروح وسيد الأرض، وهو الذى تسبب فى الفيضان وأهلك البشر جميعا.

وهناك (أنو) إله الشمس.. (ونانشا) إله الصدق والعدل والرحمة..

والإله (إنكي) إله الماء الذى عن طريقه خلق الإنسان من طين فقد جاءته أمه إلهة البحر قائلة:

يا بنى قم من فراشك واصنع عبيدًا للآلهة..

فقال إنكى: أعجِنى لب الطين الموجود فى مياه العمق واجعلى الصناع المهرة يكثفونِ الطين وعليك أن تجدى له الأعضاء والجوارح.

وابتهج الآلهة بخلق الإنسان الذى سوف يقدسهم. وشربوا حتى ثملوا.. كذلك هناك الإله (لهار) إله الماشية.. و(أنانا) إلهة الحب وملكة السماء، وزوجها (دموزى).. و(سين) إله القمر..

وقد حفظت لنا الطقوس السومرية أدعية الآلهة.. من ذلك دعاء رجل عانى شرور العالم التى صارعته.. فأسرع إلى الإله يناجيه لكى يكشف عنه هذا الضر.. وجاء فى هذا الدعاء:

يا إلهى.. أنا الحكيم العاقل.. فلماذا أحسب فى زمرة الجهلة.. إن الطعام وفير فى كل مكان.. لكن طعامى هو الجوع.. وحصتى كانت العذاب الأليم.. يا إلهى.. النهار يشرق ويضىء فى كل مكان.. لكن نهارى فى عينى أسود مظلم..

فيرد عليه الإله ويأمر بأن يبدل عذاب الرجل فرحًا وسرورًا..

وأن يوضع إلى جانبه الملاك الحارس ليحميه من الشر والألم..

كما عرف السومريون فكرة الثواب والعقاب فى العالم الآخر.. فهم يسمون العقاب الجحيم.. أو العالم السفلى.. وهذا العالم مملوء بالشياطين والآلهة الشريرة..

والذى يحكم عليه بالجحيم ينزع عنه التاج والسيادة إذا كان من الإلهة وإذا كان من البشر فيحرق فى النار..

ويحكى التاريخ أن جاء حاكم على بابل بسط نفوذه على سومر وأكاد ثم جاء (حمورابى) وأضاف توسعات فى الشمال والجنوب وضم بلاد الآشوريين ووصل إلى حدود الخليج..

لكن العقائد الدينية بقيت كما كانت فى العهد السومرى.. بل صار لكل مدينة إله يحميها..

وعندما استقر الأمر لحمورابى.. جعل من الإله (مردوك) معبود مدينة بابل.. واستجاب له الكهنة.

وكانت طقوس أرض الرافدين بالغة التعقيد.. تشتمل على تفصيلات صارمة محددة.. فقد كان تقديم القرابين ـ مثلا ـ لأغراض مختلفة منها: التكفير عن الذنوب ـ اكتساب رضا الآلهة ـ تدشين معبد جديد أو تمثال جديد.. هذا عدا القرابين العادية التى تقدم كل يوم فى المعابد فى أوقات محددة..

وكانت القرابين فى الغالب من الحيوانات والسوائل.. وكان الحمل والجدى أكثر الحيوانات استعمالًا فى هذا الصدد.. وكان البيض واللبن والعسل والزيت أكثر السوائل استعمالًا فى القرابين وغالبًا ما يبدأ الحفل الدينى بالصلوات تصحبها بعض الطقوس العملية والرش بالماء المقدس..

وكانت الأعياد الدينية هى أعياد الآلهة يشارك فيها الناس بالطقوس والغناء.. ومن أبرزها عيد العام الجديد فى مدينة بابل.. حيث يشمل احتفالًا كبيرًا يبدى فيه الملك خضوعه للإله..

ويعد الإله (مردوك) من أكثر آلهة الشرق القديم شيوعًا ونفوذًا وارتبط مصيره بمدينة بابل.. وكان مهتما بأن يجعل من بابل المدينة العظيمة فى الشرق..

وقد اختلطت عقائد وادى الرافدين بالأسطورة.. من ذلك ما جاء فى قانون حمورابى عن كيفية وصول الإله (مردك) إلى مكانته العليا.. فإله السماء (أنم) وإله الأرض (إنليل) قررا لمردك الابن البكر للإله (إنكى) السيادة على البشر.. وجعلاه عظيمًا بين آلهة السماء ثم جعلا (بابل) سيدة بلاد العالم.. وأقاما فيها لمردك ملكًا دائمًا راسخًا رسوخ السماء والأرض.. وقد ورث مردك عن أبيه العلم والسحر.. فهو الإله الذى يحيى بتعويذته الطاهرة الآلهة الموتى.

والإله مردك يمثله فى السماء كوكب (المشترى).. ويصور على هيئة بشرية ويلبس تاجًا عاليًا أسطوانيًّا محلى بالزهور وله لحية.. وشعره مرسل خلف الرأس.. وثوبه يصل إلى قدميه.. ويده اليسرى موضوعة على صدره.. ممسكة بحلقة وعصًا رمزًا للسلطة.. ويده اليمنى مدلاة جانبه ممسكة بهراوة.. وتقوم على حراسته الأفعى الحمراء..

ثم نجد الآشوريين يعبدون الإله (آشور) وهو الإله القومى وكبير آلهتهم.. وقد حل محل الإله (مردك) البابلى.. حيث قام الإله الجديد فى مدينة آشور..

وكما فعل البابليون.. فعل الآشوريون.. حيث نادوا بإلههم ومدينتهم وكان معبد آشور يسمى (أشرا) يقيم فيه الإله مع زوجته (ننليل) التى كانت من قبل زوجة الإله السومرى (إنليل).

وبدأ آشور فى إحدى صوره لابسًا قلنسوة طويلة لها قرنان.. وفى يده اليسرى العصا والحلقة شعارى السلطة.. وفى يده اليمنى الهراوة ويقف على حيوانين خرافيين هما: الأفعى الحمراء.. والأسد ذو القرنين.. ويلقب بألقاب كثيرة منها: الجبل الكبير.. وملك الآلهة الرحيم..

وتتكون الطقوس الدينية الآشورية من أدعية وصلوات مصحوبة بمقدمات مختلفة منها على سبيل المثال:

فلترضَ عنى الآلهة عندما أرفع يدى إليها.. ولتمنح حكمى أمطارًا غزيرة وأعوامًا كثيرة مملوءة بالثروة والرخاء.. ولتسبغ بركاتها على وعلى نسلى..

أما الموت لدى الآشوريين فلا يختلف عما كان عند البابليين.. فهمُّ الآشورى أن يرضى الآلهة لتمنحه السعادة والنعيم فى الآخرة.

وأخذ الآشوريون يعظمون إلههم (آشور) حتى صار صاحب أعلى المراكز بين المعبودات.. بل غدا هو خالق الآلهة جميعًا.. وسيدهم.. وملكهم.. وهو الذى يمنح التاج والصولجان للملك.. ويرأس مجمع الآلهة ليحدد مصائر البشر ولهذا تقدم له القرابين والصلوات..

ولابد أن ما حدث فى وادى الرافدين (ما بين النهرين) كان ملهمًا لأعمال ملحمية كثيرة صورت هذه العقائد ومزجتها بالأساطير..

فأسطورة الخلق تضمنها ملحمة طويلة تسمى (أنوما أيلش) ويمجد فيها الإله (مردك) البابلى..

وتقول هذه القصيدة الشعرية أنه لم يكن فى البدء شىء سوى محيط شاسع من المياه يمثله إلهان: أحدهما ذكر يسمى (أبسو) والآخر أنثى وتسمى (تهامة) أنجبا آلهة عدة لم تلبث أن ثارت على أبويها وذبحت أباها.. لكن (تهامة) واصلت المعركة وولدت من أجل الدفاع عن نفسها أمساخًا بشعة ذات أنياب سامة مثل: التنين.. والأسد الكبير.. والكلب المجنون.. والرجل العقرب.. والشيطان الأسود.. فلما رأت الآلهة هذا التهديد اختارت من بينها زعيمًا وبطلًا لها هو الإله الشاب (مردك) فصنع قوسًا.. وأمسك هراوة. وملأ جسده بشعلة ملتهبة.. واعتلى عربة العاصفة المخيفة التى لا تقاوم واتجه صوب (تهامة) الهائجة.. وتنتهى المعركة لصالح مردك البابلى..

كما نجد أسطورة (جلجامش) وهو رجل يبحث عن الخلود.. وأبطالها لا يستطيعون الفرار من الموت..

أما (جلجامش) فهو الرجل الذى عرف الأسرار الخفية واكتشف سر الحكمة ولكنه كان ملكا يضطهده شعبه فأرادت الآلهة أن تقيم له منافسًا يقاومه فخلقت له (إنكيدو).. لكن البطلين بعد مغامرات مختلفة يصبحان صديقين.. ويقومان بأعمال خارقة من بينها الانتصار على المسخ المخيف الذى يسكن غابة الأرز.. فتعجب الإلهة (عشتار) بجلجامش وتعرض عليه الزواج لكنه يرفض.. وهكذا تستمر الملحمة.. ويموت إنكيدو.. ويدرك جلجامش أن الموت قريب منه.. ويحاول الهرب.. إلى نهاية الملحمة..

وتذكر الوثائق أن السلطة العليا فى وادى الرافدين يتلقاها الملك مباشرة من الإله.. وكان الملك وفقا للمعتقدات السائدة ممثلًا للإله ووكيلًا عنه ومشيدا لمعابده.. يحب السلام ويدعو له..

وقد استحدثت بعض فترات التاريخ تأليه الملك نفسه وهو أمر نادر فى الشرق الأدنى القديم.. وقد نجده فى مصر فى بعض الفترات التاريخية القديمة.. ولكن هذا الاعتقاد اندثر قبل عصر حمورابى..

وكان الملك فى الوقت نفسه الرئيس الأعلى للكهنة.. وكان بصفته هذه يشرف على أهم الوظائف الدينية..

وفى بعض الأوقات كان ينشب صراع بين الملك والكهنة مما كان يحدث إرباكًا فى العمل داخل الدولة..

كما نجد قانون حمورابى المشهور محفورًا على نصب يعلوه رسم بارز يصور الملك واقفًا فى خشوع أمام الإله..

والملك له لحية.. وعلى رأسه عمامة.. والإله له لحية بالغة الطول.. ويلبس تاجا فيه خمسة أزواج من القرون.. ويخرج من كتفيه لسانان من النار.. ويحمل فى يده صولجانًا..

وأخيرا فإننا ندرك مما سبق أن آلهة ما بين النهرين كانت تشارك البشر حياتهم.. وأنها كانت تتصارع من أجل أن تعبد فى معابدها.. وندرك أيضًا أن كل دولة جديدة تجىء بمعبودها الذى يحل محل المعبود الأسبق.. تمامًا كما يحل الملك الجديد مكان الملك الأسبق.. وأن عقائد هذه المنطقة من الشرق ـ مثلها مثل غيرها ـ تتعدد فيها الآلهة.. ووظائفها.. ومهام عملها.. وأن الملاحم الأدبية قد استلهمت من هذه المعبودات أعمالًا فنية عظيمة اختلطت بالواقع والأسطورة معًا.. ودلت على عظمة الإنسان فى هذه المنطقة.

[5]

آلهة الإغريق والرومان



لم يعد هناك وجود لأديان اليونان وروما القديمتين.. حتى إن معبودًا شهيرًا مثل «أوليمبوس» لم يعد له بين البشر الأحياء مَن يدين له.. اللهم إلا جبل الأوليمبوس الذى كانت قمته موطنًا للآلهة.. وكان يقال إن هناك بابا من السحب تقوم على حراسته إلهات الفصول الأربعة.. وهو لا يفتح هكذا عشوائيًا وإنما يفتح للسماويين الذين يريدون أن يهبطوا إلى الأرض..

ولنبدأ بتصورات اليونان القديمة عن الكون ونشأته..

فقد كان اليونانيون (أو الإغريق) يظنون أن الأرض مسطحة ومستديرة وأن بلادهم هى مركز هذه الأرض.. بل إن جبل أوليمبوس مثوى الآلهة هو نقطة الارتكاز لأنه مهبط الوحى..

وكانوا يعتقدون أن قرص الأرض المستديرة يشطره من الغرب إلى الشرق البحر الوسيط (البحر الأبيض المتوسط).. وحول الأرض يتدفق المحيط الكبير من الجنوب إلى الشمال..

أما القسم الشمالى من الأرض فيسكنه فى تصورهم شعب يطلق عليه (الهيبربوريين) وهو يعيش فى رفاهة العيش.. وربيع دائم خلف الجبال الشاهقة التى كان يظن أن بها كهوفًا تطلق رياحًا باردة على اليونان.

أما القسم الجنوبى من الأرض فقد كان يقيم فيه شعب متمسك بالفضيلة والقيم ويسمى (الإثيوبيين).. وقد أنعمت الآلهة على هذا الشعب بخيراتها لأنهم مخلصون فى عبادتها..

وعلى الحافة الغربية يقع السهل الأليزى حيث جعله الآلهة مثوى الذين رضيت عنهم دون أن يذوقوا الموت.. فهم خالدون منعَّمون ويطلق على هذا المكان (جزائر المباركين المغبوطين).

وبالطبع فإن آلهة الإغريق هى التى تمتلك العالم من حول اليونان.. بل ساد الظن لديهم أيضًا بأن الشمس والقمر يطلعان من المحيط على الجانب الشرقى.. ويمنحان الضوء للآلهة والبشر على السواء حتى النجوم نفسها تطلع أيضًا من المحيط.. وهناك كان إله الشمس يستقل زورقًا مجنحًا يحلق به من الجانب الشمالى للأرض حتى يصل مكانه فى الشرق حيث بداية إشراقه.

وكان للآلهة أماكن متفرقة يأوون إليها.. فإذا جاءهم استدعاء من الإله (جوبيتر) هموا جميعًا لتلبية الإلهة.. حيث يتناولون على مائدته طعام الآلهة.. ويحتسون شرابهم الذى كانت الإلهة (هيبا) تقدمه إليهم.. ويتسامرون ويتحاورن فى شئون السماء والأرض.. بل كان الإله (أبوللو) إله الموسيقى يعزف لهم على قيثارته أعذب الأنغام.. وتغنى لهم عليها إلهات الشعر والرقص التسع. وعندما تغيب الشمس تعود الآلهة إلى أماكنها لتنام (وجوبيتر) هذا هو عند الرومان (زيوس) وكان سيد الآلهة أو أبا الآلهة والبشر..

وربما لا يوجد شعب قديم سوى الإغريق الذى تتعدد آلهته وتتنوع.. فهى بالكثرة التى لا يمكن الإحاطة بهم جميعًا.. كما أن الأسماء تختلف من اليونان إلى الرومان بالرغم من أن مهام الآلهة واحدة فى الشعبين.

وحتى لا نغرق فى هذه الغابة من الآلهة.. نذكر أشهرها وأكبرها لدى اليونان والرومان:

- فجوبيتر - لدى الإغريق - هو زيوس بن كرونوس - لدى الرومان وهو أبو الآلهة والبشر الأولمبى.. ويرمز له بالرعد والنسر.

ـ جونو ـ لدى الإغريق ـ هى هيرا الرومانية ملكة زيوس الإلهة الحامية لكل من أرجوس وساموس ـ ويرمز لها بالتاج والنقاب.

ـ نبتون.. أو بوسيدن ـ أخو زيوس.. إله البحر والزلازل والخيل.. ويرمز له بالحصان القائم على ثلاث..

ـ بلوتون.. أو هاديس.. أخو زيوس.. حاكم الموتى وزوج برسيفونى أو كورى..

ـ كيريس أو ديمتر أخت زيوس ربة حبوب الزرع.. الأم الحزينة فى الأسطورة الإغريقية على ابنتها كورى التى اختطفها هاديس رب الأسرار.. ويرمز لها بالمشعل وسنبلة القمح..

ـ منرفا أو أثينا بنت زيوس.. عذراء.. محاربة.. وهى ربة الصنائع والآلهة الحامية لأثينا المدينة.. ويرمز لها بالبومة والخوذة.. والرمح..

ـ فولكان أو هفايستس بن زيوس وهيرا.. رب الصناعة كان أعرج.. ويرمز له بالمطرقة..

ـ مركورى أو مرمس بن زيوس والجنية نيمف أو مايا وهو رسول الآلهة.. ورب الطرق والتجارة والأبواب والحظ.. وقائد الموتى.. وحامى الرعاة والرياضيين.. ويرمز له بعصا الحاجب..

ـ أبوللو.. ابن زيوس.. إله النبوءة والتطهير والموسيقى.. ورمزه قيثارة وقوس..

ـ ديانا أو أرتميس.. أخت الإله أبوللو.. ربة القنص.. حامية الحيوانات البرية والنساء.. رمزها: القوس.

ـ باخوس أو ديونيسوس.. ابن زيوس.. رب الدراما والعاطفة والكرم.. وحامى طيبة.. ورمزه: كرمة..

ـ فينوس أو أفروديت.. ربة الحب والجمال.

ـ كيوبيد أو إيروس.. الحب العنيف.. ابن أفروديت..

ـ مارس.. أو إريس.. رب الذبائح..

تلك أشهر الآلهة عند الإغريق والرومان..و هناك آلهة أخرى لها مهام متعددة لكنها أقل شهرة..

بل كانت هناك آلهة رومانية خالصة مثل (زحل) الذى أسقطه جوبيتر عن العرش.. والإله (فاونوس) حفيد (زحل) إله الحقول والرعاة.. و(كوبرنيوس) إله الحرب.. و(بومونا) إلهة أشجار الفاكهة.. و(فستا) هذه الإلهة التى تبسط سلطانها على المعابد المقدسة.. و(يانوس) حاجب السماء. حارس الأبواب ويمثل عادة برأسيْن لأن لكل باب مسلكين.. وكانت له معابد متعددة فى روما.

وكان الرومان يعتقدون أن لكل رجل وامرأة روحًا تمنح صاحبها الوجود.. وتحميه خلال حياته.. وفى أعياد الميلاد كان الرجال يقدمون القرابين لهذه الروح الغامضة.

وكان يوجد بالقرب من جبل أليمبوس مكان يطلق عليه (مهبط الوحى) ويدل هذا المكان على أن أحد الآلهة عليه أن يوجد فيه ليجيب فيه أولئك الذين يستشيرونه فيما يتعلق بالمستقبل أو يدعون الآلهة لتلبية حاجاتهم.

أما كيف أنشئ هذا المكان فيقال إن حمامتين طارتا من طيبة من مصر إحداهما توجهت إلى (دودونا فى أبيروس) وهبطت فى منطقة فيها أشجار البلوط. خاطبت الناس بلغة بشرية.. وطلبت منهم أن يقيموا مهبطًا لوحى جوبيتر..

أما الحمامة الأخرى فطارت إلى معبد جوبيتر فى الواحة الليبية.. وفعلت كما فعلت الحمامة الأولى..

ومن أشهر منازل الوحى.. موطن وحى أبوللو فى دلفى..

وبجانب مهبطى وحى جوبيتر وأبوللو.. هناك منازل أخرى لآلهة أخرى مثل الإله (تروفونيس).

وكان على من جاء للسؤال أو الاستخارة أن يؤدى شعائر خاصة.. وبعد القيام بهذه التمهيدات يهبط إلى الكهف عن طريق ممر ضيق ليلا.. ثم يعود من الكهف عن الطريق نفسه.. ولكن بسيره القهقرى..

أما مهبط وحى (أيسكولابيس) فقط كان المرضى يقصدونه لشفاء أمراضهم عن طريق نومهم فى المعبد.. وكان علاج المرضى أشبه ما يكون بالمغناطيسية أو التنويم المغناطيسى..

وأدخلت هذه العبادة لأيسكولابيس فى وقت كانت روما تعانى من الأمراض.. وتحكى الأسطورة أن الإله استجاب للمرضى ورافق السفينة عند عودتها فى هيئة ثعبان.. وحينما رست السفينة عند نهر التيبر شيد له معبد تكريما له.

واشتهرت اليونان بإقامة تماثيل الآلهة فى صور ضخمة مهيبة.. وكان المقصود بذلك نقل هذه المهيبة إلى نفوس البشر.

فهذا تمثال جوبيتر الألمبى صنعه الفنان (فيداس) من عاج وذهب أما ملابسه فكانت زخارف من ذهب أيضًا.

ويرتفع التمثال أربعين قدما فوق قاعدة تبلغ اثنتى عشرة قدما..وكان الإله ممثلا وهو جالس على عرشه.. وجبينه متوج بإكليل من أغصان الزيتون.. وكان ممسكا فى يمينه بصولجان.. وفى يساره بتمثال النصر.. أما عرشه فكان من خشب الأرز الموشى بالذهب والمرصع بالحجارة الكريمة

وكانت الفكرة التى أراد النحات تجسيدها هى فكرة إله الشعب (الإغريقى) الأعلى المتوج فى مهابة كاملة واطمئنان تام.. وهو يحكم العالم الخاضع بإيماءة من رأسه.

أما الإلهه (منيرفا) فكان تمثالها أيضا من عمل (فيداس).. ونصب فى البارثينون.. أو (هيكل منيرفا) بأثينا..

وكان التمثال يمثل الإلهة واقفة حاملة رمحًا فى يد.. وتمثالا للنصر فى اليد الأخرى.. ويعلو خوذتها زينة رفيعة منمنمة..

ويرتفع التمثال أربعين قدما.. من العاج والذهب أيضًا.. وله عينان من الرخام ملونتان.

وكلا التمثالين: جوبيتر ومنيرفا.. لم يعد لهما وجود..

أما (أبوللو) إله الموسيقى والشعر.. فهو مصنوع من الرخام يزيد ارتفاعه عن سبع أقدام.. وهو معرى لا يستره شيء سوى عباءة مثبته حول العنق.. ومدلاة فوق الذراع اليسرى الممدودة..

وهناك ملاحظة مهمة فى العقائد الإغريقية والرومانية.. فقد أقبل عليها ـ وعلى أساطيرها ـ كُتاب كثيرون يستلهمون منها أعمالهم الأدبية وأشهر هذه الأعمال ملحمتا الإلياذة والأوديسة للشاعر الكبير هوميروس وتتناولان حرب طروادة وعودة الإغريق وأيضًا.. ملحمة (الإنيادة) للشاعر فرجيل وهى تلى فى عظمتها ملحمتى هوميروس.

كما جاء أوفيد ليستلهم أيضًا فى أعماله هذه الأساطير حول الأحزان.. وأعظم ماكتب (التغييرات والأيام) وكلاهما ملحمة أسطورية..

ونلاحظ أيضًا أن الآلهة فى هذه الأعمال الأدبية الملحمية تعيش شأن الأبطال البشر.. تغضب وتفرح.. تتأخر وتتراجع ـ تنتصر وتنهزم.. تتحيز وتختلف..

وقد صورت هذه الملاحم أيضًا العبادات والتراتيل والقرابين والسحر وقوى الآلهة وقوى البشر.. والصراع بينهما..

وهنا تختلط الأسطورة بالتاريخ بالعقائد.. كما يحدث لدى أية حضارة قديمة..

وبهذا ندرك أن آلهة الإغريق والرومان كانوا فى تجاور واتحاد، وكانوا طبقات.. لكل طبقة عمل ووظيفة.. كما كانوا يتعاملون مع البشر لاكتسابهم إلى صفهم خاصة فى ميادين القتال.. أما الناس فكانوا يتعبدون.. ويقصدون مهابط الوحى اعتقادًا منهم بأن الخلاص من الأمراض.. وقضاء الحاجات عن طريق الاستخارات والدعاء والصلاة.

[6]

عقائد العرب قبل الإسلام



غريب أمر هذه القطعة من الأرض التى تضم الجزيرة العربية بمفهومها الكبير والتى تضم مناطق نجد والحجاز واليمن والعراق وما اتصل بهذه المناطق بين البحر الأحمر وخليج العرب والرافدْين..

فقد كان العرب يدينون دين إبراهيم وإسماعيل وغيرهما من الأنبياء الذين بعثهم الله لعاد وثمود ومدين..

وحينما سكن إسماعيل عليه السلام مكة.. ولد فيها أولادًا كثيرين.. ملأوا البلاد شرقا وغربًا.. وشمالًا وجنوبًا.. ووقعت بينهم وبين العماليق حروب وعداوات كثيرة.. فتناثروا وتشتتوا.. فمنهم من مال إلى عبادة الأوثان والحجارة حيث حمل معه حجرًا من حجارة الحرم فى مكة تعظيما له.. وحيثما حل وضعه وطاف حوله كطوافه فى الكعبة تيمنا منه.. وحبا فى الحرم..

ويذكر التاريخ أن عمرو بن ربيعة بن لحى بن حارثة الأزدى هو أول من غير دين إسماعيل ونصب الأوثان وما يتعلق بها من العبادة والقرابين.. ذلك أنه استولى ـ بعد القتال ـ على مفاتيح الكعبة وتولى حجابة البيت.. وحينما مرض مرضًا شديدًا قيل له: إن بالشام مكانًا إن ذهب إليه شفى من مرضه.. فذهب واستحم بمائه.. فشفى.. ووجد أهل الشام يعبدون الأصنام فقال: ما هذه؟ قيل له: نستقى بها المطر.. ونستنصر بها على أعدائنا.. فسألهم أن يعطوه منها.. فقدم مكة ونصبها حول الكعبة ودعا إلى عبادتها.. وأجابه

الناس وكانت نفوسهم مستعدة لعبادتها بما كانوا يعظمونه من حجارة الحرم.

ويعد عمرو بن لحى هذا الراعية الأول لعبادة الأوثان.. وهو الذى استوردها من بلاد عدة وزرعها فى أرض العرب..

ويدلنا ذلك على أن العاطفة الدينية لدى العرب كانت هشة ضعيفة ضحلة.. خاصة أن زمنًا طويلًا قد مر عليهم دون وجود نبى يرشدهم ويؤسس لهم عقيدتهم.. وربما أحدثت هذه الحالة سلوكًا خاصًا لدى العربى.. فقد صار يعتمد على نفسه يمتطى جواده ويتقلد سلاحه.. ويتوغل فى الصحراء بمفرده بلا أنيس.. فإذا واجهه خطر.. أخرج سيفه ليدافع به عن نفسه..

وعلى الجانب الآخر.. فقد كان المقيمون فى مكة أكثر اهتمامًا بالدين ـ أيا كانت هذه العقيدة ـ لأن عبادة الأصنام والعمل حولها والاهتمام بها كل هذا كان يدر عليهم أرزاقًا كثيرة.. خاصة فى الأعياد والمواسم وكانت العبادة تتخذ أشكالًا مختلفة.. فبعضهم كان يعبد أكثر من إله وبعضهم كان يتخذ إلهين اثنين (وهؤلاء عرفوا بالمثنوية) وبعضهم اعترف بالله وأنكر البعث.. وبعضهم كان لا دينيًا يرى أن الأرحام تدفع البشر والأرض تبلعها.. والدهر هو المهلك للإنسان.. وبعضهم جعل لله البنات. وبعضهم أسند الولد إلى الله.. وبعضهم جعلوا الجن شركاء لله. وبعضهم عبد الملائكة.. وبعضهم عبد البشر أنفسهم.. إلى جانب عبادة الحجارة والخشب فى صورة الأصنام والملاحظ أن عبادة الأصنام لم تكن لذات الأصنام بل كانت واسطة بين العابد والمعبود.. ووسيلة إلى التقرب لله.. والشفاعة عنده.. ولهذا انغلقت عقولهم على هذه العبادة برغم معرفتهم أنها لا تضر ولا تنفع..

وقد انتقلت عبادة الأوثان من مكة إلى بابل وآشور وبعض الأمم المجاورة لكن الكعبة كانت مركز الوثنية ومجمع الأصنام لها حجابها وخدمها وكهانها وحراسها ونذورها وقرابينها..

وقدر لهذا المكان الطاهر الذى شيده إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام أن يكون موطنا للضلال والظلام..وتقام حوله تماثيل وأصنام وأوثان يتوسطها (هبل) إله الكعبة الأعظم وزعيم الآلهة..

والغريب أن العرب كانوا يقدسون الكعبة ويخصونها بالاحترام والتبجيل.. فلا يرفعون بناء فوق بنائها.. ويخلعون نعالهم عند دخولها.. ويحلفون بها.. ويتحاشون أن يبنوا بناء مربعًا مثلها.. ويضمخون البيت بلحوم الإبل ودمائها تقديسًا له..

وربما كان هذا التقديس هو الذى أغار صدور الكثيرين حينما بنى أبرهة كنيسة اليمن (القليس) ظنا منه أنها سوف تصرف العرب عن الكعبة.. وأيضًا فعل ذلك بنو بغيض من غطفان حينما انتصروا على قبيلة (مذحج) وأرادوا أن يتخذوا حرمًا مثل حرم مكة يقال له (بس).

وقد تعددت بيوت العبادة الوثنية فى مكة ونجران والعراق وغيرها.. ومن هذه البيوت الشهيرة:

ذو الخَلْصَة: وهو بيت لقبيلة خثعم كان يسمى (الكعبة اليمانية وكان فيه صنم يسمى (الخَلْصَة) فسمى البيت (ذو الخلصة).

المربة: وكانت كعبة لقبيلة مذحج فى نجران.

السيدة: وكان بيتا بجبل أحد تحج إليه ربيعة كل عام.

غمدان: وهذا بيت بناه الضحاك بمدينة صنعاء باليمن..

ذو الكعبات: كان بيتًا لربيعة يطوفون به.

يعوق: كان بيتًا لقبيلة همدان بالقرب من صنعاء..

أما الأصنام فقد تعددت أشكالها والمواد التى صنعت منها وكيفية عبادتها والطواف بها وتقديم القرابين لها.. ومن ذلك:

ـ أساف ونائلة: ويقول ابن الكلبى فى كتابه (الأصنام) إن أساف بن يعلى كان رجلًا من جرهم يهيم عشقًا بنائلة بنت زيد.. فأقبلا من اليمن ودخلا مكة للحج.. فوجدا غفلة من الناس وخلوة فى البيت.. وارتكبا الزنا.. فمسخا حجرين.. فأخرجوهما ووضعوهما فى مكان ظاهر وتمر الأيام فتعبدهما خزاعة وغيرها من العرب.

ـ الأسمم: صنم أسود عبدته العرب.

الأشهل: صنم.. به سمى بنو عبد الأشهل.

بعل: صنم مصنوع من الذهب لقوم إلياس عليه السلام.

سواع: صنم لقبيلة هذيل بن مدركة فى أرض ينبع جاء به عمرو بن لحى إلى هذه القبيلة لتتخذه إلها لها..

العزّى: كانت أعظم الأصنام عند قريش.. يزورونها ويتقربون عندها بالذبائح.. وكان المنذر ملك الحيرة يحلف بها..

مناة: وهى أقدم الأصنام كلها وكانت منصوبة على ساحل البحر بين المدينة ومكة.. وكانت فى شكل حجر أسود تعظمها الأوس والخزرج.

اللات: وهى إلهة عربية أخرى أحدث من مناة وقيل إنها تعنى (الشمس) وقد احتلت مكانة كبيرة لدى العرب..

ـ هبل: وهو أول صنم وضع بالكعبة وكان من عقيق أحمر على صورة إنسان مكسور اليد اليمنى فصنعت له قريش يدًا من ذهب. وكان مكانه على بئر فى جوف الكعبة. ويقال إنه جىء به من الشام.

وقد تعددت أشكال الأصنام فمنها ما كان على شكل إنسان ومنها ما كان على شكل حيوان.. ومنها ما كان حجرًا بلا شكل..

ويذكر تاريخ العقائد فى الجزيرة العربية أن العرب أيضًا كانوا يقدسون الإنسان والحيوان والنبات.

فقد كان العرب كغيرهم يعظمون رؤساءهم تعظيم العبادة.. وكانوا يجدون فى ذلك تدينًا خاصًا فى وقت لا يجمع بينهم دين عام.. وقيل إن العرب كانت تحج إلى بيت الزبرقان بن بدر.. فقد كان له بيت يزيّنة بالزعفران والطيب والعمائم والثياب.. وكانت بنو تميم تحج إليه.. وفى ذلك يقول الزبرقان:

نحن الكرام فلا حى يعادلنا　　　منا الملوك وفينا تنصبُ البيَعُ

كما قدس العرب الحيوان وأول من ابتدع ذلك عمرو بن لحىّ.. وكان للحيوان طقوس وقرابين ومن أنواعها:

- البَحِيرة: فإذا نتجت الناقة خمسة أبطن آخرها ذكر بحروا أذنها (شقوها) وحرموا ذبحها وركوبها.. ولا تمنع من ماء ولا مرعى..

- السائبة: وهى التى لا يتركها ولا يسيبها الرجل إذا شفى من مرضه.. فلا يشرب لبنها إلا أبناء السبيل.

الوصيلة: هى التى تلد أمها اثنين فى كل بطن فيجعل صاحبها لآلهته الإناث.. ولنفسه الذكور.

- الحامى: هو الفحل يعيش فى مال صاحبه عشر سنين..

تلك كانت طقوس الوثنية فى عبادتهم للحيوان..

كما عرف العرب الطوطم (أو الحيوان المقدس) حتى إنهم أطلقوا على عشائرهم وقبائلهم وأنفسهم أسماء الحيوانات والزواحف والطيور: مثل

أسامة ـ الليث (الأسد) ـ نهشل (الذئب) كلثوم (الفيل). الحنش والأرقم (الحيات) ـ القطامى (الصقر) الهيثم (فرخ العقاب) ـ عكرمة (الحمامة) ـ جندب (الجرادة)..

أما تقديسهم للنبات فلم يكن أقل من الإنسان والحيوان.. ومن ذلك أنهم قدسوا شجرة النخيل لما كانت تمدهم بأنواع التمور المختلفة ويسمونها عمتى النخلة وكان كفار قريش يأتون كل عام لشجرة عظيمة خضراء يقال لها (ذات أنواط) فيعلقون أسلحتهم عليها ويذبحون عندها ويعكفون عليها يوما.. ويقال إن العزى كانت شجرة مقدسة..

لكن العرب لم يكتفوا بهذه العبادات المختلفة.. فهى كلها من الطبيعة بل امتد اعتقادهم إلى ما فوق الطبيعة فعبدوا الجن والملائكة فقد ذكر ابن الكلبى أن بنى مُلَيْح من خزاعة كانوا يعبدون الجن.. وكان يرون فى الملائكة (بنات الله) فعبدوها..

وقد كان اعتقادهم فى الجن والملائكة على أنها قوى فوق الطبيعة فهى ـ فى زعمهم ـ تدير شئون العالم.. ولهذا فهم يعبدونها حتى ترضى عنهم ولا تصيبهم بسوء..

بل عبد العرب كذلك الظواهر الطبيعية من مطر وبرق ورياح وعواصف.. وقوس قزح.. وقزح كان اسما يطلق على جبل قرب المزدلفة بالحجاز.. ويقال إنه اسم ملك موكل بالسحاب.. وقيل إنه إله للعواصف.. وكان العرب تشعل نيران الإله قزح فى المزدلفة..

وبعض العرب تسلل إليهم عن المجوس عبادة النار خاصة فى قبيلة تميم.. وأطلقوا عليهم أسماء كثيرة منها: نار الاستسقاء ـ ونار التحالف ـ ونار الحرتين.

أما عبادة النجوم.. فهى قديمة جدا فى بلاد العرب.. وهى متصلة بالصابئة.

والصابئة نشأت فى أول الأمر بالعراق على يد (هرمس) ثم (بوداسف) وقد استخدمها العرف الجاهلى وأطلقها على كل من خرج عن دين الجماعة أو القبيلة.

ويطلقها أصحاب العقائد على عبدة الكواكب والنجوم وجعلها وسيطا إلى الله.. إذ الكواكب ـ فى ظنهم ـ تحتوى على النور الإلهى.. ولقد قدسوا الكواكب السبعة: الشمس ـ القمر ـ الزهرة ـ المشترى ـ المريخ ـ عطارد ـ زحل..

وكانوا يعظمون البروج الاثنى عشر..

وربما فعلوا ذلك لأنهم نقلوا عن الكلدانيين علوم الفلك حيث كانت للكلدانيين معرفة برصد الكواكب وطبائع النجوم وأحكامها. وكانت سبأ الحميرية أول قبيلة صائبة تعبدالشمس .. وكانت كنانة تعبد القمر..

وجُرهم: تعبد المشترى.

وقريش: تعبد الشعرى اليمانية.

وكان هناك ثالوث الآلهة فى أرض الرافدين:

ـ إله نجمة الصباح: هو عشتر لدى البابليين والآشوريين.

ـ إله القرّ: وهو ود عند المعينيين.. وسين فى حضرموت.

وإله الشمس: واسمه شمس وشمش..

ولعل فى تسميتهم بعبد شمس.. وعبداللات.. وبعد الشعرى ما يفيد عبادتهم للكواكب..

ويقوم فكر الصابئة على عدة ركائز منها:

ـ إن للعالم صانعًا حكيما مقدسًا عن سمات الحدثان..

ـ إن الإنسان يعجز عن إدراك الإله وعلينا أن نقر بهذا العجز وفى الوقت نفسه علينا أن نتقرب إليه بالوسائط المقربة إليه.

ـ إمكانية الاتصال بالإله وإن كان هذا الاتصال غير مباشر.. لما عليه الإنسان من دنس النفس وإظلامها بالشهوات الطبيعية لذلك فإن الوسيط يجب أن يكون روحانيًا..

ومن هنا كانت الوساطات عن طريق عبادة العناصر الطبيعية وقد تكون الكواكب السبعة فى أفلاكها..

وقد تكون النبات فى أنواعه..

أو الحيوان فى أنواعه..

وقد تكون ظواهر الجو كالأمطار والثلوج والرعد والبرق.

وقد تكون الظاهرة فى الأرض مثل الزلازل والأبخرة..

ومنها ما هو متوسط القوى مثل قوى الحسن الإنسانى..

والصابئة يصلون ثلاث صلوات ويغتسلون من الجنابة.. ومن مسّ الميت.. ويحرمون أكل الخنزير والكلب.. والطير ذى المخلب.. ويحرمون السكر والشراب..

ويبنون هياكلهم على أشكال الكواكب السماوية.. فهيكل زحل: على شكل مسدس.. وهيكل المشترى: على شكل مثلث.. وهيكل المريخ على شكل مربع مستطيل ـ وهيكل الشمس: على شكل مربع.. وهيكل الزهرة على شكل مثلث فى جوف مربع.. وهيكل عطارد: على شكل مثلث فى جوف مربع مستطيل ـ وهيكل القمر: فى شكل مثمن: وتولد من عبادة النجوم علم التنجيم والفلك..

وهناك فروق واضحة بين الصابئة والمجوسية والحنيفية.. فالصائبة كما رأينا عقيدة تعبد وتقدس النجوم والكواكب وتجعلهما واسطة للإله الكبير..

أما الحنيفية فهى الملة الكبرى والشريعة العظمى والدين القيم عن سيدنا إبراهيم عليه السلام.. والتوحيد من أخص أركانها..ولهذا فإن الشرك لا يوجد فى هذه العقيدة لقوله تعالى ﴿ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ﴾ وأما المجوسية فهى أخلاط من العقائد بين الوثنية الأولى والعقيدة الإلهية الحديثة. وهى تعتمد على أصلين اثنين قديمين يقتسمان الخير والشر..والنفع والضرر: والصلاح والفساد يسمون أحدهما النور والآخر الظلمة..

بقى أن نذكر هنا أن عبّاد الأصنام من العرب يشركون بالله آلهة أخرى.. كذلك أنكروا إرسال الرسل.. إذ كيف يكون الرسول بشرًا مثلهم يأكل ويشرب وينام..

كما أنهم كذلك ينكرون البعث.. فلم تكن عقلية البدوى تقبل بحياة أخرى بعد الموت..

وكان العرب لهم آلهة متعددة فى أشكال مختلفة.. حتى لتكاد كل قبيلة تتخذ لنفسها إلها تعبده.

وكان لعباد الأصنام أعياد كثيرة منها مكانية ومنها زمانية.. فأما المكانية فتتصل بالمواضع التى تقام فيها الأصنام.. وكثيرًا ما كانت تشد الرحال إلى الطواغيت الكبار: اللات والعزى ومناة.. وكان لكل منها موضع معروف.. فاللات للطائف.. (وقيل إنه كان فى الأصل رجلًا صالحًا يخدم الحاج.. فلما مات عكفوا على قبره مدة ثم اتخذوا له تمثالًا ثم بنوا عليه بناء سموه بيت الربة) وأما (العزى): فقد كانت لأهل مكة قريبًا من عرفات..

وأما (مناة): فكانت لأهل المدينة يهللون لها شركًا بالله..

وأما الأعياد الزمانية.. فهى أيام مسراتهم وأفراحهم والنصر على عدوهم وخصومهم.. وتختلف هذه المواقيت من قبيلة إلى أخرى.

وكان العرب فى أعيادهم ومواسمهم يتزينون بأحسن الثياب.. ويتسابق الفرسان منهم على خيولهم.. ويلعب الأشراف الميسر.. ويلعب الصبيان أنواعا أخرى من اللعب.. ويضربون الدفوف والمزاهر.. ويغنون الأراجيز والشعر..

تلك كانت عقائد العرب قبل الإسلام: تعدد الآلهة.. إنكار البعث.. إنكار الرسل.. عبادة الأوثان.. وأظن أن ذلك كله كان نتيجة حيرتهم طوال التاريخ وكأنهم يبحثون عن الحقيقة حتى جاءهم الإسلام بنوره وحقائقه..

[7]
الهندوسية (الهندوكية)


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

لم تختلف الهند عن غيرها من الحضارات القديمة.. فقد انتشرت فيها عبادة طوطمية لأرواح كثيرة تسكن الحيوان والصخور و الأشجار ومجارى المياه والجبال والكواكب..

كما قدسوا الثعابين والأفاعى.. لكن الآلهة الأقوى لديهم كانت قوى الطبيعة نفسها: السماء.. والشمس.. والأرض.. والريح.. والماء.. ولكى تستقر هذه الآلهة فى نفوسهم أطلقوا عليها أسماء تخلدها وترتبط بها.. بل خلعوا عليها صفات إنسانية.. من ذلك مثلًا أنهم جعلوا السماء (أبًا) وأطلقوا عليه (فارونا) وجعلوا الأرض (أمًّا) وأطلقوا عليها (برينيفى).. وسموا المطر الإله (بارجانيا).. والنار الإلهة (آجنى) والريح (فايو) والعاصفة (آندرا) ـ والشمس (سوربا أو مترا أو فشنو).. أما النبات المقدس الذى يسكر عصيره كل البشر فأطلقوا عليه الإله (سوما).

وبدلًا من التعبير عن هذه الآلهة بالكلمات تمثلها الناس فى صورة أشخاص وعبدوها..

ويبدو أن كثرة الآلهة قد أوقعت رجال الدين فى مأزق.. وثار سؤال مهم: مَن مِن هؤلاء الآلهة خلق العالم؟

واختلف الكهنة والمفكرون: هل هو (آجنى) إله النار.. أم (أندرا) إله العاصفة..

وبعد جدل طويل انتهى الكهنة إلى أن إله الشمس هو خالق كل شىء وقد ظل هذا الرب يعلو ويعلو حتى صار الإله الأكبر وسمى (براهما).

وبراهما هو الخالق المبدع.. والحافظ الرحيم.. والمهلك للعالم.. وهذه الصفات الثلاث تشكل ثالوثا بعضه الخالق.. وبعضه الحافظ وبعضه المهلك..

وهذه العبادة هى الهندوسية (أو الهندوكية) وكانت تسمى قديمًا (درما) لكنها سميت هندوسية لتشمل الدين والحضارة والعادات والتقاليد التى نشأت على ضفاف نهر هندوس.

وتتخذ العقيدة الهندوسية مسيرتها فى أطوار محددة.. فعندما أراد براهما خلق العالم.. عزم على أن يمنح الأرض سكانًا يخرجون من بدنه مباشرة.. ولهذا أخرج براهما من فمه الكاهن الذى استأمنه على الأسفار الأربعة المقدسة والتى تسمى (فيداس).. وأخرج من ذراعه اليمنى (شترينا) المقاتل ومن يسراه زوجة المقاتل.. ومن فخذيه خرج المزارعون والتجار.. وأخيرًا خرج من قدميه الصناع والعمال (وهى أدنى المخلوقات) وهكذا جاء أبناء براهما الأربعة إلى العالم بهذه الطريقة ليصبحوا آباء الجنس البشرى.. ورؤوس طوائفه.. وصدرت إليهم الأوامر بأن تكون كتب (فيداس) الأربعة هى قواعد عقيدتهم.. وطقوس عبادتهم..

والبراهمة هم كهنة هذه العقيدة.. مختصون بتعليم الفيداس وليس لأحد أن ينتهك حرمة أشخاصهم وممتلكاتهم.. ومهما ارتكبوا من الجرائم.. فإن نفيهم من البلاد هو أقصى ما يمكن أن يعاقبوا به.. ويتحتم على الملوك والحكام أن يعاملوهم باحترام كبير.. وتقدير عظيم ذلك لأن (البراهمى) ينتمى إلى الإله القوى..

وحينما يبلغ (البراهمى) أشده يصبح الزواج واجبًا عليه.. وعلى طوائف المجتمع تيسير سبل الحياة له.. لأنه لا يجوز له أن يعمل فى حرفة أو مهنة غير تعليم الفيداس..

تلك الطوائف التى خلقها (براهما) لكل منها واجب ومهمة فى الحياة.. فالبراهمة لدراسة أسفار الفيداس المقدسة وقوانينها.. وشرائعها وتقديم القرابين.. أما المحاربون والملوك فقد خلقوا لحماية الشعب وممارسة الإحسان والتضحية وتلاوة الكتب المقدسة وعدم الانغماس فى الشهوات.. والتجار والمزارعون خلقوا لتربية المواشى والبيع والشراء وحرث الأرض ودراسة الكتب المقدسة.. أما الصناع والعمال فهم طبقة المنبوذين..وليس عليهم سوى أن يضعوا أنفسهم تحت أقدام الطبقات الأخرى ويهيئوا لهم سبل الحياة.. وهنا تساءل البعض: هل يستطيع الإنسان أن ينتقل من طبقة إلى أخرى؟

أجاب البراهمة: كلا.. فإذا كنت صالحًا فستلقى ثواب صلاحك فى الحياة الأخرى.

فعندما يموت الإنسان تخرج روحه من جسده وتدخل فى جسد طفل وُلِدَ لتوِّه..

وهنا نلاحظ تناسخ الأرواح التى يؤمن بها الهندوسى حيث تتقمص الروح عددًا من الأجساد خلال رحلتها الخارجية حتى تصل إلى مثواها النهائى..

وهذه النظرية تنطبق ـ فى الهندوسية ـ على كل الكائنات: بشرية وحيوانية وحشرية ونباتية.. حيث يحكمها قانون واحد. أما (براهما) فهو إله خالد لا يموت.. .ولأنه هو روح العالم فإن روح الكائنات الحية التى تأتى من روح العالم لا تموت قط.. وأما (فشنو) الإله الحافظ فهو إله الحب.. وأعظم ما يتجسد فيه هذا الإله هى شخصية (كرشنا) الذى يأتى بالأعاجيب والبطولات ومغامرات الغرام ويذود عن الفقراء..

أما الإله الثالث (شيفا) فهو إله القسوة والتدمير.. وهو لا يظهر عادة إلا فى ميادين القتال والمعارك الضخمة والمنازعات الطاحنة.. أما تماثيله المنحوتة من الصخر فتصوره يضع فوق رأسه عددًا من الجماجم.. وتحيط به أرواح الشر..

وإلى جانب الآلهة الرئيسة تلك.. هناك عدة آلهة صغيرة منها مثلا (جانيش) ابن الإله (شيفا) وهو الفيل الذى تتجسد فيه الطبيعة الحيوانية للإنسان.. وهناك القردة والأفاعى وتمثل مصادر الرعب التى ترمز لطبيعة الآلهة.. وأخطر هذه الأفاعى المعبودة (ناجا) التى تقضى على الإنسان من عضة واحدة.. ولهذا فهم يقيمون لها حفلًا دينيًا سنويًا يقدم لها فيه قرابين من اللبن والموز..

وإلى جانب القردة والأفاعى والأفيال هناك التماسيح والنمور والطواويس والببغاوات بل والفيران أيضًا.. فالهندوسى لا يرى فارقًا بين الحيوان والإنسان مادام فى كل منهما روح.. كما أن البقرة تعد أكثر الحيوانات قدسية لدى الهندوس.. ويقيمون لها التماثيل فى كل مكان.. وهى تتمتع بحرية كاملة فى الحركة والسير فى الطرقات.. ولا يجوز للهندوسى أن يأكل لحمها أو يستغل جلدها فى أى صناعة.. وهى إذا ماتت وجب دفنها بجلال مصحوب بأعظم طقوس الدين..

وتنتشر الهندوسية فى الهند وأندونسيا.. وكما نرى فإنها عقيدة تقوم على الجهل بالكون وخوف الإنسان من أحوال الطبيعة وضعفه أمام سلاطين الكائنات..

وقد تزعم الدعوة إلى هذه العقيدة طوائف كثيرة بدأت قبل ميلاد المسيح بنحو 2500 عام.. وكانت تلقن تعاليمها شفويا.

والهندوس يحبون الصور.. فهم شكليون فى ممارسة أديانهم.. ومعابدهم مملوءة بالرموز والأعمدة المقدسة..

كما أنهم مهتمون بالنذور والقرابين والتوبة والتقشف وتلاوة الكتب المقدسة والصلوات.. ويتشدَّدون فى ممارسة الطقوس الدينية.

وأكثر الكتب الهندوسية المتفرعة عن (الفيداس) كتاب (الويدا) المكتوب باللغة السنسكريتية.. والويدا: تعنى التأمل وقد كتبه المؤلف (جيدى فوجا) ويتضمن الويدا نحو أربعة عشر بابا تشرح الفلسفة الدينية والأسس العقلية للعقيدة الهندوسية والاختلافات الدينية.. وتؤكد الهندوسية بأن الإله قد وضع فى كل كائن نفسًا تسمى الروح أو (آتما) وهى فى الجسم بمنزلة السائق من العربة.. وهذه النفس كاملة وإن كان البدن الذى يولد ليس كاملًا..

أما أوصاف هذه النفس فهى كثيرة منها:

ـ لا تؤثر فيها الأسلحة ـ لا تؤثر فيها الرياح ـ لا يبلها الماء.. لا تحرقها النيران.. خالدة أبدية ـ لا تتحرك ـ لا تتبدل..

والأعمال البشرية نوعان: أعمال خيرة جزاؤها خير.. وأعمال شريرة جزاؤها شر ومقت..

والمحسنون الطيبون فى الدنيا الذين لا يحصلون على أجرهم فى الحياة الدنيا سوف ينالون ثوابهم الطيب فى الحياة الأخرى.

ولدى الهندوس أيام مقدسة تسمى (الأيام الهندوسية) وهى:

ـ أول أيام العام: وفى هذا اليوم تقام الصلوات للتكفير عن خطايا البشرية.

ـ ليلة يوم الغفران: وتجىء فى شهر يناير عندما يبدأ القمر ذلك اليوم فى دائرة المحاق.. حيث تمارس اليوجا وتلاوة الكتب المقدسة وهذه الطقوس

يمارسونها للحصول على المغفرة من الخطايا التى ارتكبوها فى اليوم السابق على الليلة التى يغيب فيه قمر شهر يناير.

- يوم الشكر للخالق: ويتكرر هذا اليوم كل ستة أشهر ويقع فى يوم سبت.. وفيه يتذكر الهندوس عظمة الخالق وقوته ويرتلون تعاليمه أمام تمثاله الذى يتشكل فى صورة رجل يحمل معه آلات موسيقية وهو جالس فوق إوزة..

- يوم البركة: وهذا اليوم أيضًا يجىء كل ستة أشهر ليغتسل الناس فيه ويحصلوا على شعاع من نور إلههم يضع فيهم البركة والنعيم والقوة والرخاء ويقع فى يوم أربعاء..

- يوم الأرض: وهو يوم خلق براهما الأرض بكل ما فيها ويقع أيضا كل ستة أشهر يوم أربعاء وهو أربعاء مختلف عن يوم البركة السابق.

- اليوم الأصفر: ويقع فى يوم سبت كل ستة أشهر وفيه يتطهر الهندوس ويتضرعون إلى هؤلاء الملهمين الذين نزلت عليهم كتب (الويدا) ومنهم: مانوا - باراسا - ياجا بالكيا وآخرون.. ولابد أن تنتهى احتفالات هذا اليوم قبل منتصف النهار.

ونلاحظ أن بعض هذه الأيام (الأعياد) قد انتقلت إلى المسيحية مثل عيد رأس السنة - ويوم الخوص - ويوم الغطاس (البركة)..

وتشمل العقيدة الهندوسية سلوك الإنسان فى الحياة الدنيا.. فالإنسان أمامه مهلكات.. ومُنجْيات..

أما المهلكات فمنها ما يتعلق بالوجدان والقلب وهى:

النفس - النسيان - الغضب - السّكر - الحيرة - الحقد

ومنها خصال وسمات مثل: الثراء - الذكاء - القوة - الجمال - الانتصار

ومنها ما يتعلق بالأفعال التى تؤدى إلى الهدم والخراب مثل:

ـ أن تحرق مال غيرك..

ـ أن تضع السم فى طعام غيرك..

ـ أن تمارس السحر..

ـ أن تحدث فوضى..

ـ أن تكون قاسيا عنيفا..

ـ أن تفتن الناس أو تخدعهم..

أما المنجيات فى الهندوسية فهى فى ثلاثة أسس كبيرة:

1- أسس التفكير الصالح وتشمل:

لا ترغب فى شىء ليس حلالا.

لا تفكر بسوء نحو أى من البشر.

لا تنكر الثواب الذى يدخره الله للصالحين..

2- أسس الحديث الصالح وتشمل:

ـ كراهية الشتائم.

ـ عدم محبة الألفاظ النابية..

ـ عدم محبة الفتنة..

ـ عدم إخلاف الوعد..

3- أسس الفعل الصالح وتشمل:

ـ لا تعذب أحدًا ولا تقتل نفسا.

ـ لا تسرق.

ـ لا تزنِ..

ـ ونفهم من هذا العرض أن الهندوسية تقوم على فكرة تقديم الخير للنفس والمجتمع.. وأنها تنظر إلى خلق العالم عن طريق إله كبير عظيم هو (براهما).. وأنها عقيدة شملت التدين والحضارة والعادات والتقاليد والسلوكيات الخاصة بشعب الهندوس.. وهى تقدس آلهة كثيرة فى صورة حيوانات وحشرات وآدميين.. وهى أيضًا تؤمن بتناسخ الأرواح.. فالروح تحل ـ حينما يموت الجسد ـ فى مولود جديد وهكذا.. وأن البشر طبقات.. وأسمى طبقة منهم هم (البراهمة) والذين قد يصلون مرتبة التقديس والتقدير.. ويعمل كل البشر فى خدمتهم..

كما أنها عقيدة تقدس البقر والأفيال والأفاعى والتماسيح والنمور وغيرها من الحيوان..



[8]
البـــــوذية

فى إحدى قاعات المتحف الوطنى بنيودلهى.. وقف الزوار بدهشة وتعجب أمام تمثال يعود إلى القرن الخامس قبل الميلاد.. وهو رأس بوذا.. ذلك الرجل الذى عاش نحو ربع قرن من حياته فى الترف والنعيم.. ثم انقلب على نفسه وحياته من أجل معرفة الحقيقة..

ولقد حفل القرن السادس قبل الميلاد بأحداث كبيرة فى أماكن كثيرة من العالم.. فقد ولد خلال هذا القرن (كونفوشيوس) و(لاوتزو) حكيما الصين العظيمان.. وفيه أيضا دمرت أورشليم وانتهى عهد ملوك اليهود من نسل داوود عليه السلام.. وأسس (قورش) الكبير الإمبراطورية الفارسية.. وظهر المشرع اليونانى (صولون) - والرياضى العظيم (فيثاغورس).. وفى أوائل هذا القرن (525 ق.م) احتل الفرس مصر..

وفى هذا القرن أيضًا كان مولد الأمير (سيدهارتا) والذى عرف باسم (بوذا) فهناك على مقربة من الحدود الهندية النيبالية.. تقع مقاطعة (ساكيا) وكان يحكمها حكيم ساكيا (أوجوتاما)..

وكانت المقاطعة ككل الأقاليم المجاورة تؤمن بالهندوسية.. وتعبد عددًا من الأرباب تقدم لها القرابين المختلفة..

وكان الحاكم متزوجًا بامرأة جميلة تسمى (مايا) وقد اتسمت بالذكاء والخلق الرفيع.. وحينما شعرت الملكة بالحمل استدعى زوجها الكهنة والعرافين والحكماء.. الذين أجمعوا على أن الملكة قد حملت بغلام سيصبح

ملكا على كل البلاد لو هو استقر فى بيته.. أما إذا غادر داره هائمًا على وجهه.. فسيصبح هو البوذا كاشف نقاب الجهل عن وجه هذا العالم.

وتعجب الملك من هذه النبوءة..

وكانت الملكة قد طلبت من زوجها أن يأذن لها بالسفر إلى أهلها لتضع وليدها هناك.. فسمح لها.. لكنها فى الطريق أحست بالمخاض وهى تحت شجرة فى بستان.. ووضعت الطفل..

وفى وقت الوضع ظهرت علامات مختلفة فى السماء والأرض.. فحدث زلزال شديد.. وانتشر النور فى كل مكان.. وتفتحت براعم الزهور.. ونضجت الثمار.. وانتشرت رائحة ذكية..

وذاع الخبر فى المملكة.. وجاءت الوفود مهنئة الملك والملكة بهذا المولود الجديد..

وكان من بين المهنئين الزاهد الكبير (أسيتا) فقد أسرع إلى الملك يخبره بما شاهده ليلة مولد الطفل فوق جبال الهيمالايا.. لقد كان حفلًا أقامته ملائكة السماء لوصول المولود الجديد.. قال الزاهد للملك:

ـ أبشر يا مولاى.. فهذا المولود سيصل إلى مرتبة التنوير السامية.. وسيدخل النيرفانا (وهى مرحلة الفناء فى الطهر) وسيهدى العالم إلى طريق الصواب والحق..

وسعد الملك بما قاله الزاهد..

لكن أمه ماتت بعد مولده بسبعة أيام فقط.. فقال الحكماء إنها قامت بدورها.. لقد كانت مجرد واسطة لميلاد بوذا.. أو (سيدهارتا) وأشرفت زوجة أبيه على تربيته وأحبته كأنه ولدها.. وأحاطته باثنين وثلاثين جارية لرعايتة..

أما أبوه فقد بذل بذلك جهده ليكون ملكًا صالحًا.. فأرسله إلى المدرسة فأذهل مدرسيه وهو فى الثامنة من عمره.. فقد كان ذكيا سريع التعلم والفهم.. حتى إنه ألم بالفروسية والرياضة والمعرفة والثقافة وكره المصارعة والصيد..

وكان البراهمة قد أخبروا والده بأن (بوذا) شديد الحساسية لآلام الناس.. وسوف يدفعه هذا إلى هجرة القصر إلى العالم اللامحدود.. بحثًا عن المعرفة.. فأمر الملك بعدم الإشارة إلى مآسى الناس وآلامهم.. والامتناع عن إيذاء سمعه بأقاصيص البؤس والفقر والمرض والموت.. وإظهار الصور البهيجة لكى يعيش الأمير الصغير فى متعة عقلية وبدنية..

لكن الأمير لم تعجبه هذه الحياة.. فقد طاردته الأفكار السوداء.. وآلام الناس..

وزوَّجه أبوه من بنت عمه.. وكانت هى نفسها الفتاة التى ولدت معه فى نفس يوم مولده.. وكان ذلك فى السادسة عشرة من عمرها..

وعاش الزوجان عشر سنين حياة سعيدة فى قصر رائع الجمال.. وجاء يوم دخل الأمير على أبيه الملك يستأذنه فى الخروج فى جولات صغيرة داخل المدينة.. فسمح له أبوه.. وصاحبه حارسه (تشاناه) ومضى الأمير بعربته فى طرقات المدينة.. فوقع بصره على شيخ هرم ناحل الجسم.. مقوس الظهر.. يمشى متثاقلًا مستندًا على عصاه.. ففزع الأمير عندما عرف أن هذا الشيخ كان فى مرحلة من حياته شابًا مثله.. وأن هذا هو مصير كل إنسان..

واستمر فى طريقة فرأى رجلًا مصابًا ببرص شوَّه بشرته أبشع تشويه.. وعلم أن المرض قد يصيب أى إنسان بلا تمييز لا فرق بين غنى وفقير.. وحكيم وجاهل..

فحزن الأمير وواصل طريقه فشاهد أربعة أشخاص يحملون جثة ومن ورائهم موكب جنائزى.. ورأى المشيعين ينخرطون فى البكاء والنحيب.. فتألم وصمم على معرفة سر هذه الحياة..

وواصل طريقة.. فرأى المشهد الرابع وهو لرجل راهب يتعبد ويرتدى رداء أصفر.. لكن مظهره يوحى بالشجاعة والقوة.. فاقترب منه.. فالتفت إليه الراهب وطلب منه أن يهجر جميع مظاهر الترف والنعيم التى يعيشها.. ويلقى بنفسه فى العالم الروحى حتى يصل إلى الحقيقة التى تنقذ الناس مما يعانونه من بؤس وشقاء.. وهنا اهتزت لدى الأمير (سيدهارتا) القيم والمثل والحياة التى تحيط به.. وسيطر على عقله أن الدنيا لغوٌ وغرور..

وتساءل بينه وبين نفسه:

ـ من أين يأتى الفناء.. ولماذا لا يكون الناس كلهم سعداء مثله؟ ولماذا تصر الهندوسية على تقسيم الناس إلى طبقات.. ويعيش الفقراء حياة قاسية تعسة.. ولماذا قسم (براهما) الناس إلى هذه الطوائف.. إن هذا يبدو ظلما..

وأيقن (سيد هارتا) أن ما تعلمه فى كتب الهندوسية كان غريبًا وباطلًا.. ولم ينم الليل.. بل أخذ يخطط لحياة جديدة بعيدة عن قصر أبيه..

وفى منتصف ليلة مقمرة من شهر يوليو أيقظ الأمير خادمه الأمين (تشاناه) وأمره بأن يسرج جوداه (كانتكا).. وخرج من القصر وتقول الأسطورة إن الملائكة أغلقت فم الجواد حتى لا يصهل.. ومنعت حوافره من ملامسة الأرض حتى لا يسمع صوتها.. وسار الأمير وخادمه حتى وصلا إلى شاطئ نهر (أنوما) وهناك حلق الأمير شعر رأسه بسيفه وخلع ملابسه وما كان يتخلى به من جواهر وأعطاه لخادمه.. وأمره أن يتركه وحيدًا ويعود إلى القصر.. وهنا قال الخادم:

ـ سمعًا وطاعة يا مولاى الأمير..

وهز الأمير رأسه وهو يقول:

ـ لم أعد أميرك يا تشاناه.. فلست أحلم أن أكون ملكا على البشر.. لكنى أريد أن أكون واحدًا من الناس أعيش حياتهم. وتركه الخادم عائدًا إلى قصر أبيه..

أما (سيد هارتا) فقد واصل طريقه المجهول..

ثم انتحى إلى شجرة كبيرة من فصيلة تسمى شجرة (البو) وهى تسمى فى البوذية (شجرة الحكمة.. أو شجرة المعرفة) وقال لنفسه:

ـ لن أغادر مجلسى هذا حتى أحصل على الحكمة السامية.. وأصل إلى المعرفة الحقة..

وتروى الأسطورة أن إله الشر والظلام (مارا) هاجم (سيدهارتا) فى تلك الليلة وجمع أتباعه الشياطين والتفوا حوله فى محاولة لإحباط مساعيه. فزينوا له المطامع الدنيوية.. وجسدوا له الشهوات الحيوانية.. وحاولوا غوايته بالنساء الجميلات.. لكنه لم يتأثر بكل هذا وظل صامدًا لا يتحرك ولا يستجيب حتى لاح نور الفجر.. وتحول الأمير (سيدهارتا) إلى (بوذا) الحقيقى صاحب النفس المستنيرة.

وفى تلك الليلة وصل (بوذا) إلى الحقائق الأربع النبيلة وهى:

1- الوجود شقاء..

2- الشهرة هى سبب الشقاء..

3- لكى يتخلص الإنسان من الشقاء عليه أن يتغلب على الشهرة.

4- لكى يصل الإنسان إلى هذه الغاية عليه أن يعيش على الفهم السليم للعقيدة ـ الاتجاه إلى عمل الخير ـ القول الطيب بعيدًا عن الكذب

والنميمة ـ العمل الصالح ـ حسن معاملة الناس ـ عدم الكسل والتراخى ـ الانغماس فى العمل دون الشعور باليأس. العبادة والتأمل الروحى حتى يصل إلى النرفانا..

ثم واصل مسيرته حتى التقى المعلم العظيم (آلارا) فسأله: كيف أتعلم الحكمة؟

قال المعلم: ادرس الفيداس ففيها حكمة العالم..

إنه يعلم أن الفيداس فيها نقائص كثيرة.. فمضى (بوذا) عن المعلم والتقى عددًا من الرهبان الذين كانوا ـ مثله ـ يبحثون عن الحكمة. فقالوا له: لكى نحصل على الحكمة علينا أن نظهِّر أنفسنا ونعذب أجسادنا.. ونجوع.. تلك تعاليم (براهما)..

قال (بوذا) لنفسه: سأحاول فعل هذا..

ومضى مع الرهبان.. وامتنعوا جميعا عن تناول الطعام.. وضعفت قواهم حتى عن المشى..

وهنا صاح (بوذا): أنا أخالفكم أيها الرهبان وسأكف عن تجويع نفسى.. فتركه الرهبان وحيدًا.. أما هو فقد أخذ يأكل ويشرب ويستعيد قواه فلمعت أفكاره وصفا عقله.. وأدرك أنه لن يستطيع الحصول على الحكمة بدراسة (الفيداس) ولا بتجويع نفسه.. ولا بالجلوس على المسامير والأحجار الخشنة والزجاج المكسور كما يفعل رهبان الهندوسية.. بل رأى أن المعرفة والحكمة فى روح الإنسان. واقتنع بأن الذى وصل إليه تحت الشجرة أفضل كثيرًا مما يدعو إليه الرهبان. بقى إذن أن تصل هذه الدعوة إلى الناس..

واصل السير.. فقابل الرهبان مرة أخرى فسألوه: هل وجدت الحكمة التى تسعى إليها..

فأجابهم: نعم وجدتها.. وأخذ يشرح لهم ما توصل إليه.. ثم قال لهم بقوة واقتناع:

ـ إن الماء يتدفق دائمًا من فوق التل.. والنار ساخنة دائمًا.. ومهما قدمنا من صلوات وقرابين فلن يصعد الماء إلى التل.. ولن تبرد النار.. لأن للحياة قوانين وعلينا فهمها.. ولا سلطان لتماثيلكم وأصنامكم على تغيير شىء فى هذا العالم.. ولهذا فإن عبادة الأصنام خطأ.. وغباء.. فإذا كانت (الفيداس) تأمركم بالصلاة وتقديم القرابين إلى الأصنام.. فهى ليست مقدسة.. كما أنها تعلمكم أن (براهما) خلق الناس طوائف.. وقسمهم طبقات فهل هذا يصح من إله..

ـ وصمت الرهبان يفكرون فيما يقوله بوذا.. لكن بوذا واصل حديثة القوى قائلا:

ـ أمامكم الآن أحد طريقين: حياة المتعة.. وحياة تعذيب النفس.. وكلاهما خطأ.. لأنهما لا يؤديان إلى الحياة الصالحة.. أما الطريق الوسط فهو الإيمان الحق..

واقتنع الرهبان وبدءوا معه طريقه.. وكانت تلك أول تعاليم البوذية وبدأت الدعوة تلقى الأتباع الذين يؤمنون بها.. ابتداء من قصر أبيه الذى وصله بوذا استجابة لدعوة أبيه له.. منذ أن تركه من ثمانية أعوام..

واعتنق الملك تعاليم ولده (بوذا) فانتشرت فى المملكة جميعها.. وحدث أن اجتمع فى حديقة الغزلان بنحو ثلاثين من التلاميذ الذين اجتمعوا به للسخرية منه.. لكنهم حينما استمعوا لحديثه آمنوا بدعوته فقد كان يلقى عليهم (موعظة القانون) والتى تتضمن الحديث عن سلوك الإنسان وهو نوعان:

من ينغمسون فى الشهوات وهو سلوك مستهتر..

ومن يعذبون أنفسهم لإماتة الجسد..

وكلاهما مذموم..

وسوف تكون الأفكار الصحيحة هى المشعل الذى ينير الطريق فالحقيقة نبيلة.. ولا شيء يمكن أن يخلص العالم سوى الحق.. وكان بوذا دائم التنقل.. والناس من حوله فى كل مكان يتعلمون منه.. ويحكى أنه كان يجلس يومًا فى ظل شجرة فأتته امرأة تبكى بكاء شديدًا وتحمل وليدها الصغير الذى فارق الحياة..

قالت المرأة له:

أيها المستنير.. لقد مات ابنى الوحيد.. وسألت كل من أراه كيف أعيده إلى الحياة فدلونى عليك.. أرجوك يا سيدى أعد ابنى للحياة.. فهو ولدى الوحيد..

أدرك بوذا أنه من الصعب إقناعها بشيء وهى فى حالة الحزن هذه.. فقال لها: اتركى ولدك بجانبى واذهبى إلى أى بيت واطلبى من أهله أن يمنحوك نصف كوب من السمسم لأرشه على طفلك فيصير حيا..

قالت المرأة: أى بيت يا سيدي؟

قال بوذا: بشرط ألا يكون هذا البيت قد فقد أحدًا من أهله.. وانطلقت المرأة وهى تظن أن الأمر بسيط وهيّن.. ودخلت القرية القريبة.. وطرقت باب أول بيت رأته.. فخرجت إليها صاحبة البيت وسألتها:

ـ أية خدمة يا سيدتي؟

قالت: هلا تفضلت بإعطائى نصف كوب من السمسم..

أجابت صاحبة البيت: بكل سرور يا سيدتى..

وفى لحظات أحضرت لها السمسم.. فقالت المرأة وهى تهم بالإنصراف:

ـ أرجو ألا يكون أحد من أهلك قد مات..

وهنا أصابت هذه الكلمات قلب صاحبة البيت الموجع وقالت:

ـ سامحك الله. لم تذكريننى بجراحى التى لم تندمل.. لقد فقدت أخى الوحيد منذ شهر.. ومن قبل فقدت أبى منذ عام..

قالت المرأة: أنا آسفة يا سيدتى وأعتذر.. خذى سمسمك.. فلا حاجة لى به..

وتركتها وطرقت باب بيت آخر.. فخرجت لها امرأة مسنَّة فسألتها أن تمنحها السمسم.. فأحضرته لها.. فقالت:

ـ أتمنى يا سيدتى ألا يكون أحد من أهلك قد مات.. ولم تكد صاحبة البيت تسمع ذلك حتى انفجرت فى البكاء وقالت:

ـ ابنى.. ابنى الوحيد.. ابنى الذى رعيته عشرين عامًا قد مات منذ ستة أشهر.. فلماذا تذكريننى به وتسببين لى الشقاء..

تأسفت المرأة وأعادت إليها السمسم..

وانصرفت إلى بيت ثالث.. وسألت أرملة البيت وكانت فى الستين من عمرها.. فأحضرت لها السمسم.. ولما سألتها إذا كان أحد مات من أهل بيتها قالت:

ـ أستطيع أن أمنحك عشرة أكواب من السمسم إن شئت ولكن كثيرًا من أهلى قد ماتوا.. مات زوجى منذ عشر سنين.. فأحسست أن الحياة بعده لن تدوم.. ولكنى فكرت فى الأمر تفكيرًا آخر.. فلو كان الناس خالدين

بلا موت.. فأين تجد الأجيال الجديدة نصيبها فى الحياة.. أين أبوك وجدك وجدتك وجد جدك.. لقد ماتوا جميعا وها أنت تعيشين.

وانطلقت المرأة إلى بوذا فسألها:

ـ هل جئت بالسمسم يا ابنتي؟

قالت: كلا.. وقد قال الناس إن الأحياء قليلون والموتى كثيرون.

قال بوذا: تلك هى الحياة يا ابنتى.. كلها آلام.. والطريق الصحيح إلى الحياة الصالحة هى الوصايا الخمس للاستقامة: لا تقتل كائنا حيًا.. لا تسرق أو تأخذ ما لم يعط لك.. لا تتحدث كذبًا.. لا تنم على دنس.. لا تسكر أو تخدر نفسك.. إذهبى وادفنى صغيرك واطلبى من الإله أن يمنحك خيرًا منه.. ذلك هو شأن الحياة.. وليس فى الدنيا من يستطيع أن ينجو من الموت..

وآمنت المرأة بتعاليم بوذا وأتباعه يزدادون إيمانًا وعددًا.. وأصبحت من الراهبات.

ومضت الأيام، وبلغ بوذا الثمانين.. ومرض فجأة.. وعرف أن النهاية قد دنت.. وكانت هذه هى المرحلة الأخيرة من حياته وهى: الوصول إلى النرفانا (أى الاختفاء التام)..

وهنا يصورون (بوذا) أحيانًا وهو نائم وحوله التلاميذ ينتحبون. وتقول الأسطورة: إن الأرواح فى الأرض والسماء قد اجتمعت وشاركت فى نعيه والبكاء عليه..

كان ذلك فى عام 470 قبل الميلاد..

وبعد إحراق جثته اختلف أتباعه حول ما خلفته النار من عظام ورماد.. وانتهى الأمر بتقسيم البقايا عشرة أقسام ظفر كل فريق من المتنازعين بقسم.. وبنوا فوقه ضريحًا.. وظلت هذه الأضرحة سنين طويلة مقصد الحجاج من جميع أنحاء الهند..

وهنا يمكننا أن نفرق بين الهندوسية والبوذية..

فالهندوسية فيها آلهة كثيرة.. وليست البوذية مهتمة بفكرة الألوهية. والهندوسية فيها نظام الطبقية الحاد.. وليس ذلك فى البوذية بل هذا سر ظهور البوذية كثورة على النظام الطبقى..

والهندوسية فيها نظام الكهنة الوسطاء بين الناس والآلهة.. وهؤلاء يعيشون ـ غالبًا ـ عالة على عرق الشعب وإنتاجه.. وليس فى البوذية إلا كاهن معلم وظيفته الوعظ والإرشاد.

والهندوسية فيها نظام دولة وأسرة وقانون.. وليست البوذية مهتمة بشىء فى الدنيا على الإطلاق.. فهى سلبية تدعو إلى السياحة فى الغابات.. وعدم الاهتمام بمتع الحياة..

وتدعو الهندوسية الروح للاتحاد مع الإله.. والبوذية تدعو إلى النرفانا وهى الفناء فى الطهر..

لكن العقيدتين ـ مع هذه الفروق ـ تشتركان فى بعض الأمور منها: أن فكرة البعث والحساب والجنة والنار غير واضحة فيهما تمامًا.. وفكرة الوحى ملغاة نهائيًا..

ومع مرور الزمن نسى أتباع بوذا كثيرًا من تعاليمه.. وبدأت البوذية تأخذ أشكالًا مختلفة فى الهند وخارج الهند.. وكلتاهما تصور حياة الناس فى القرى والغابات وتقاليدهم وعاداتهم.

ففى جنوب الهند وجزيرة سيلان تمسك الناس بمذهب صاحب العقيدة فى بساطته وصفائه.. فعبدوا بوذا لكونه معلمًا عظيمًا.. وليس إلهًا..

أما البوذية فى التبت ومنغوليا والصين واليابان فقد أعلنت ألوهية بوذا وأحاطته بالملائكة والقديسين.. واصطنعت تقشف (اليوجا).. واستخدم

الاتباع الماء المقدس والشموع والبخور والمسبحة والثياب الكهنوتية وقص الشعر والصيام والدعاء للموتى.. وبنوا فى أنحاء آسيا معابد لبوذا ووضعوا فى كل منها تمثالا له..

ويحسن بنا أن ننهى هذا الفصل ببعض من كلمات بوذا يقول فيها:

طوبى للذى يتغلب على ذاته..

ولمن ينتظر السلام..

وطوبى للذى وصل إلى الحقيقة فهى نبيلة جميلة..

لأنها تنقذ صاحبها من الشرور..

إن إدراكها لا يجىء إلا بالإيمان..

فآمنوا بها.. وأحيوا فيها..

فلا خلود إلا فيها..

لأنها وحدها تبقى أبدا..

[9]
الجينيَّة (أو .. الجانيَّة)



يتنافس البشر فى أمور كثيرة من حياتهم.. لكن الغريب أن يتنافسوا فى العقيدة الدينية.. وبدلًا من الاتفاق فيما بينهم على الأصلح.. يطمعون فى استحداث طقوسهم ورؤاهم فى العقيدة السائدة.. ويبدأ بذلك صراع دينى طويل..

حدث هذا بين آلهة مصر القديمة.. خاصة فى عصر أخناتون الذى نبذ الإله آمون وأعلن إلهه آتون..

وحدث ذلك أيضًا فى الهند حين ثار بوذا على الهندوسية.. وتبعه (ماهافيرا) مؤسس عقيدة الجينية..

فما قصة هذه العقيدة الهندية؟.. وهل تتشابه أم تختلف مع الهندوسية والبوذية؟

لنبدأ القصة من بدايتها..

هناك فى إقليم يقع جنوبى مدينة بنارس بالهند بدأ التفكير فى هذه العقيدة فقد كان يحكم هذا الإقليم ملك رزق بطفل أطلق عليه (فيرادامانا)..

وحدث أن كبر الطفل وبدأ يلعب مع رفاقه.. فسمعوا صوتًا هائلًا قادمًا من بعيد.. وانزعج الصبيان وتفرقوا، إلا أن فيرادامانا لم يتزحزح من مكانه.. فإذا بفيل ضخم يتقدم نحوه فى جنون... وكاد يدوسه بأقدامه.. فانقض الأمير فجأة وأمسك بخرطوم الفيل بطريقة غريبة تدرب عليها من قبل.. ثم صعد فوق رأس الفيل وراح يهدئه ويربت عليه حتى هدأ.. وقاده عائدا به إلى حظيرته.. وهنا أسرع السائسون بالسلاسل ليقيدوا الفيل..

وقص المدربون ما حدث على الملك وبدأت قصته مع الفيل تنتشر فأطلق عليه الناس اسم (ماهافيرا) أى البطل الشجاع.

وبدأ يدرس العقائد الهندية.. بعقل فاحص مدقق.. فاكتشف نواقص الهندوسية ونواقص البوذية..

ترى ماذا يفعل..

حينما بلغ الثامنة والعشرين مات أبوه وماتت أمه.. فحزن عليهما.. لكن هذا الحزن جعله أكبر تحديًا لحياته..

أفاق ماهافيرا على نفسه فأقسم أن يودع حياة الترف ـ كما فعل بوذا ـ إلى حياة أخرى أكثر بساطة وتقشفا..

وعزم على أن يظل اثنى عشر عامًا صامتًا لا ينطق كلمة واحدة.. وانطلق إلى الغابات والقرى البعيدة يفكر ويطيل التفكير فى عقيدة البراهمة.. وأيقن أنها فى حاجة إلى تعديل وتحسين..

وتعرض فى جولاته تلك إلى مواقف صعبة لأنه أقسم ألا يتكلم ولا ينطق بكلمة واحدة لمدة اثنى عشر عامًا..

من هذه المواقف أنه مّر على أحد الرعاة يرعى غنمه.. فقال له الراعى:

ـ هل لك أن ترعى غنمى حتى أذهب إلى القرية وأعود ببعض الطعام وأجعلك تشاركنى فيه..

وأومأ (ماهافيرا) برأسه موافقا.. ومضى الراعى إلى القرية.. وظل (ماهافيرا) متنبهًا للخراف.. لكن ذئبا تسلل من الغابة واختطف حملًا ومضى مسرعًا به بين الأشجار.. ولم يستطع ماهافيرا اللحاق به. وجاء الراعى فاكتشف اختفاء الحمل.. لكنه ظل صامتًا.. فظن الراعى أنه يخفى

عنه شيئا.. فأخذ يتهمه بالسرقة ورفع عصاه وانهال بها عليه.. وماهافيرا صامت لا يتكلم ولا يدافع عن نفسه.. بل ترك الراعى يضربه حتى بدأ الدم ينزف من جسده..

وتعجب الراعى.. فتوقف عن الضرب.. وقال له بصوت مرتعش:

ـ إنك أول إنسان يأبى أن يدافع عن نفسه أو يهرب من العقاب لابد أنك رجل مقدس..

ولم يجبه ماهافيرا.. فأشار إليه بالسماح وانطلق..

قال الراعى لنفسه: لقد علمنى هذا الراهب أن الصمت أقوى من الكلام. ومضت الأعوام وماهافيرا يجوب البلاد طولًا وعرضًا ويدرس ويتأمل ويفكر حتى انتهت الاثنى عشر عامًا.

بدأ يعظ ويتحدث ويدعو الناس.. وكان حديثه مؤثرًا..

وكان يقول:

إن حياة الإنسان كلها عناء.. الميلاد عناء.. والمرض عناء.. والموت عناء.. والسعى إلى ما يريد.. عناء..

أما هذا العناء فسببه الرغبة.. فالناس يريدون أشياء كثيرة جدًّا.. ومهما حصل الإنسان على الكثير من الطعام أو الثروة أو الشهرة فهو يطلب المزيد فالرغبة ـ والطمع ـ سبب كل عناء..

ولكى نقضى على العناء.. نتخلى عن جميع رغباتنا ونعد أنفسنا إلى سعادة روحية عاليه..وهى النيرفانا..

والطريق إلى النيرفانا يتحقق بالاعتقاد الصحيح.. والسلوك السليم.. والمعرفة الحقيقية..

أما السلوك السليم فيتجلى فى خمس وصايا: لا تقتل ـ لا تسرق ـ لا تكذب ـ لا تحيا حياة الفجور ـ لا ترغب فى شىء على الإطلاق..

وماهافيرا ينتقد نظام الطوائف والطبقات فى الهندوسية.. ولا يؤمن بعبادة الأصنام.. وأن الصلاة لا قيمة لها ولا تفيد أحدا قط..

أما الغفران لديه فيتحقق بالعمل الصالح داخل نفوس البشر..

وكما نرى فإن الجينية التى يدعو لها ماهافيرا تشبه البوذية إلى حد كبير ويلخص آدابها كتاب (اليوجاسوترا).

أما نصوصها الكهنوتية فتجىء فى كتاب (الباجاقاتى)

ويستجيب الكثيرون لهذه العقيدة ويتلون كتابها المقدس (الأجاما) وهناك أربعة عشر من هؤلاء الجينا يتعاقبون على مدى الدهر.

إن الجينية تشترك مع البوذية فى تقديم الذبائح وفى الإيمان والولاء وفى تلقى الاعتراف وفى الصوم وفى قراءة الكتب المقدسة.. وفى ممارسة التأملات الروحية..

وهى كالبوذية ترفض كتب الفيداس البرهمية وينادون بتغييرها.. بل يقولون إنها منتحلة..

لكنها تأخذ طريقا وسطا بين الهندوسية والبوذية حيث تقر بمبدأين من أكثر المبادئ شيوعًا فى الهند وهما مبدأ التقشف إلى أقصى حد.. ومبدأ الامتناع عن إلحاق الأذى بأى كان حى..

فهم يمتنعون عن أكل اللحوم بأنواعها.. ولا يشربون إلا الماء المرشح.. ويضعون نقابا يشبه الكمامة على أنوفهم وأفواههم وذلك خوفا من استنشاق الميكروبات لا حرصا منهم على حياتهم.. ويكنسون الأرض أمامهم خوفا

من أن تطأ أقدامهم حشرة بريئة.. ولابد أن تكون المكنسة ناعمة حتى لا تؤذى الحشرة.

ومن المناظر المألوفة أن يتحول الجانى فى قيظ الظهيرة باحثًا عن جحور النمل يطعمها بالحلوى والسكر المجروش..

والجانى المتدين لا يوقد نارًا فى الليالى المظلمة خشية اجتذابها للفراشات والهوام فتحرقها..

كما أنهم لا يقصُّون شعور رءوسهم ولا يزيلون شعر أجسامهم بالموسى أو المقص.. بل يقتلعونها اقتلاعًا من جذورها خوفًا على حياة القمل. وهذه المبالغة الغريبة أبعدتهم عن المهن الصناعية التى من شأنها أن تهدد الحياة بشرية أو حيوانية أو حشرية.. كالصناعات التى تحتم إشعال النار أو الآلات الحادة.. أو صناعة الأخشاب أو الأحجار والبناء.

أما الزراعة فهى محرمة عليهم تمامًا؛ لأن الحرث يعرض الديدان والحشرات للقتل والإبادة!

وهم يعتنقون فكرتى تناسخ الأرواح.. وتحرير الأرواح..

ومن هذه الصورة ندرك أن بوذا كان يمضى فى الطريق الوسط.. طريق الاعتدال الذى يؤمن بأن التطرف شر..

أما ماهافيرا فيمضى فى طريق تعذيب النفس.. ويؤمن بأن التجويع وتعذيب النفس والجسد يساعدان الإنسان على الوصول إلى الحياة الصالحة كما أن هناك فارقًا مهما بينهما.. فبوذا يعتقد أن بكل الأحياء روحًا: الإنسان والحيوان والنبات.. لكن ماهافيرا يزيد على ذلك بقوله: إذا عاش الإنسان حياة غير صالحة فإنه يولد بعد وفاته من جديد فى جسم خنزير أو ثعبان أو ضفدع..

كما اعتقد ماهافيرا أن الجحيم تحت الأرض له سبعة طوابق كل طابق أشد هولًا من سابقة.. وكلما كانت الروح أشد شرًا وجدت نفسها ملقاة فى أسفل درك فى الجحيم..

كما أن الجينية لها وصايا أخرى على أتباعها التمسك بها.. ومن ذلك الحد من التملك والحيازة.. أما اقتناء الثروة الضخمة فهو ليس محرمًا.. وإنما المحرم هو أن يظل المرء يكدح بعد اقتناء الثروة.. متعلقا بأهداب الغنى والمال فى حد ذاته.. كما توصى التعاليم بالامتناع عن الكذب والمبالغة.. وعليهم بالأمانة المطلقة فى الحياة العملية.. وعدم الغش والكسب الحرام..

والتاجر الجانى مشهور بأمانته.. كما يشتهر بثروته..

والمجتمع الجانى مجتمع تكامل.. يطعم الجائع.. ويروى العطشان ويكسو الفقير.. ويرفق بالحيوان.. ويعنى بالرهبان..

والراهب الجانى لابد أن يتمسك بعهود خمسة أساسية هى:

- عدم العنف.
- الامتناع عن الغش.
- تحريم تناول ما لا يقدم إليه بحرية وعن طواعية وإخلاص.
- العفة والطهارة.
- نبذ الحب أيا كان لشخص أو لشىء.. لأنه يوقظ الرغبة..

وتتركز تعاليمهم على افتراض أن الخلاص النهائى إنما يعنى التحرر من هذا العالم المملوء بالعيوب والنواقص..

ومن الغريب أن الجينية تفرض على الكاهن حياة التشرد والتنقل المستمر خوفًا عليه من التورط فى إقامة علاقات شخصية مع الناس..

ويقول رهبان الجينية:

إن الألم يحسّه الناس فى اثنتين وعشرين حالة يجب اجتنابها منها: الشعور بالجوع أو العطش.. والشعور بالبرودة أو الدفء.. والشعور بضيق الصدر من لدغة بعوضة أو نملة.. والشعور بالخزى أو الخجل عند العرى.. وعدم الهدوء حينما تُرى امرأة جميلة.. والأسف لعدم وجود فراش ينام عليه المرء.. إذ يحرم على الإنسان النوم فوق فراش.. والشعور بالغضب أو عدم الرضا بالحال.. والتألم من المرض.. والتوجع من جروح القدم إذا مشى الإنسان على الشوك والمسامير..

والغريب أيضًا أن الجينية تجيز الانتحار ولا تقيم فى سبيله العقبات وخاصة إذا تم عن طريق الجوع.. فذلك يعد أعظم انتصار تظفر به الروح على إرادة الحياة العمياء!

فالموت جوعًا منزلة عاليه تدل على أن صاحبه وصل إلى أسمى درجات الزهد والتقشف.. فتتحرر روحه..

وللإيمان بالآلهة والشياطين قصه فى حياة الجينيين..

فبرغم أنهم لا يؤمنون بكائن أسمى فى السماء ولا حتى بخلود العالم..

فإنهم يؤمنون بكل الآلهة والحكماء وأنصاف الآلهة والشياطين والجن المعروفة فى البرهمية..

والآلهة لديهم مختلفون عن البشر.. لكن الآلهة ليست قادرة على كل شىء.. بالرغم من تمتعها بقوى خارقة..

وينظر الجينيون إلى العالم فيقسمونه ثلاثة أقسام:

الطبقة العليا.. مثل الجذع فى جسم الإنسان.

الطبقة الوسطى.. مثل وسط الإنسان..

الطبقة السفلى.. مثل أقدام الإنسان..

ثم يقسمون كل طبقة إلى أقسام كثيرة..

ويبدو أن التطرف الذى ساد هذه العقيدة حال دون إقبال الناس عليها حتى فى الهند.. فقد انقسم أتباعها عام 79 ميلادية إلى طائفتين: لابسى السماء: أى العراة أسوة بماهافيرا.. وأصحاب الزى الأبيض الذين رأوا عرى المؤسس للعقيدة محض اختيار شخصى منه..

أما معابد الجينية فلها أيضًا سماتها الخاصة..

فالمعبد يضم تمثالا لإله من أربعة عشر إلها وهم مجموع القديسين المؤهلين للعقيدة فى البدء..

ومن الغريب أن الراهب لا يقوم بالإشراف على المعبد بل يترك هذه المهمة لطبقة البراهمة التى تمرست على هذه المهنة أما هو فيكتفى بمركز الأستاذ أو المعلم..

أما قبول الكاهن فى الجينية فله أيضًا طقوسه..

حيث تجرى رسامته تحت شجرة بعد أن يضع جواهره وملابسه جانبًا دلالة على تخلصه من جميع مقتنياته..

ثم بعد ذلك يقتلعون شعره ويلطخون صلعته.. ثم تنتهى المراسم أو الطقوس بأن يهمس له الأستاذ فى أذنه بالصيغة الكهنوتية والسحرية.. ويبدو أن أتباع الجانية قد وصلوا إلى درجة كبيرة من الثراء وكان لهم الفضل فى النهوض بفن المعمار.. فقد وجه أثرياؤهم أموالهم لبناء المعابد لأبناء عقيدتهم.. حتى أصبح فى الهند ما يقرب من أربعين ألف معبد..

وإلى جانب المعابد فهم يخصصون البيوت القديمة للأبقار ويجعلون منها مستشفيات للحيوانات المريضة.. كما يجعلون بعض غرفها عنابر للطيور المصابة والحشرات التى تحتاج إلى رعاية واهتمام..

وفى عام 480 ق.م توفى صاحب هذه العقيدة ماهافيرا بعد أن تحدث طوال ستة أيام إلى الملوك والحكام والناس.. وفى الليلة السابعة تحرك ببطء وأسند رأسه إلى جدار.. ثم أفاق وتحرك بأعوانه ليجلس على عرش من ماس كان يتوسط قاعة بالغة الفخامة.!

وتقول الأسطورة إن النوم غشى أعين كل من بالقاعة عند الفجر واختفى ماهافيرا دون أن يراه أحد.. ثم أحاطت الظلمة كل مكان..

وبهذا مات أو انتهى عصر ماهافيرا.. وبقيت عقيدته يتبعها الملايين فى الهند..



[10]

عقائد الصين القديمة

كانت الصين ككل شعوب العالم القديم لها عقائدها وأساطيرها وتصوراتها للعالم والمخلوقات..

والصين ككل شعوب العالم القديم أيضًا يختلط تاريخها الواقعى بالأسطورة حتى إننا لا نستطيع أن نحكم على ما وصل إلينا على أنه تاريخى أو أسطورى..

وتظل الحقيقة غامضة حتى عهد أسرة (تشو) حوالى 1027ق.م حيث تصل نصوص هذه الأسرة كأهم المصادر لمعرفة التاريخ والعقائد..

ويعتقد الصينيون أنه قبل خلق العالم لم يكن هناك شىء.. لا شىء على الإطلاق.. حتى ظهر (بان كو) له رأس تنين وجسد أفعى وهو الذى استطاع أن يشكل العالم منذ 2300 ق.م.. وظل يجهد نفسه فى خلق كل شىء ثمانية عشر ألف عام.. وحينما مات صارت أنفاسه ريحًا وسحبًا.. وصارت أناته الأخيرة رعدا.. وأصبح الدم فى عروقه أنهارا.. وعرقه أمطارًا.. وعظامه صخورًا.. وأسنانه معادن.. وشعره غابات وأشجارًا.. ورأسه الجبال.. وعينه اليسرى الشمس.. وعينه اليمنى القمر.. أما الحشرات التى علقت بجسمه فقد صارت البشر..

وواضح من هذا التصور اهتمام الصينيين بالطبيعة.. ولهذا بدءوا يعبدون هذه القوى التى انبثقت عن (بان كو).. فعبدوا الريح والشمس والمطر والرعد والأشجار والجبال كما عبدوا الأفاعى..

وفى تصورآخر رويت قصة أخرى عن بداية الخلق تقول إن السماء والأرض كانتا يوما ممتزجتين امتزاجًا لا انفصام له كبيضة الفرخ، حيث خرج منها (بان كو).. فأما ما كان مضيئًا براقًا لطيفًا فقد شكل السماء.. وأما ما كان مظلمًا كثيفا فقد شكل الأرض.. ثم أعقب ذلك بسنوات طويلة أن بدأت السماء تزداد كل يوم عشرة أقدام فى الارتفاع.. والأرض تزداد كل يوم عشرة أقدام من الكثافة.. أما (بان كو) فكان يزداد بينهما كل يوم عشرة أقدام فى الحجم..

ثم تضيف القصة خبر موت (بان كو) وخلق بقية الأشياء..

ويتواصل التصور فى أحداث الوجود.. فيعتقد أنه فى عصور قديمة جدًّا تحطمت الأعمدة الأربعة (فى الجهات الأصلية الأربع) وتفسخت الأقاليم التسعة (من العالم المسكون) بعضها عن بعض.. ولم تعد الأرض تحمل السماء حملًا كاملًا.. والتهبت النيران دون أن تخمد.. وفاضت المياه دون توقف.. وأكلت الوحوش البشر.. وعندئذ مزجت المعبودة (نو- كوا) حجارة من الألوان الخمسة التى رأت بها السماء الزرقاء بعضها إلى بعض ثم قطعت أقدام سلحفاة وأقامت بها الأعمدة الأربعة فأقامت السماء من جديد.. وتتابعت الفصول.. وعادت الحياة إلى ما كانت عليه..

وتتصل الأعمدة الأربعة فى هذه الأسطورة بالعقيدة الكونية التى توجد فى جميع الحضارات حيث تقوم السماء على أعمدة أو نوع آخر من الأساس.

أما فكرة فصل السماء عن الأرض فهى أيضًا موجودة فى كل الحضارات والعقائد.. وهى فى الصين لها أوجه كثيرة منها ما ذكرناه من قبل ثم ها هى تعود مرة أخرى فى عهد (تشو) حيث كانت قبيلة (المياو) تثير الاضطرابات وظلمة البشر.. حتى إنهم أحدثوا فوضى كبيرة فى البلاد..

ثم علم (شانج تى) السيد العلى الرفيع ما حدث للناس فأمر بقطع الصلة بين السماء والأرض بحيث يتوقف صعود الأرواح والناس بينهما.. فلما تم ذلك عاد النظام وارتد الناس إلى الفضيلة..

ومن هذا التصور ندرك ما كان الصينيون يعتقدونه فى فصل السماء عن الأرض أو فى قصة الخلق.. بل نراهم يبالغون أكثر فى تصوراتهم فيعتقدون بوجود عشر شموس وليست شمسا واحدة.. تظهر كل منها على التتابع فى كل يوم من أيام الأسبوع الصينى الذى يتكون من عشرة أيام..

ويروى أنه فى عهد (ياو) اضطربت الشموس وظهرت فى وقت واحد.. حتى بدا كأن الدنيا توشك أن تحترق.. وعلى الفور عمد المدعو (أوهويى) حامل القوس المشهور فرمى الشموس جميعا إلا واحدة وبذلك أنقذ العالم تاركًا شمسًا واحدة هى التى تشرق وتغرب كل يوم.

وتحكى هذه الأسطورة أيضًا رحلة الشمس اليومية حيث تبزغ فى الفجر أولًا فى وادى النور فتغتسل فى بركة (هسين).. ثم تصعد شجرة (الفوسانج) حيث تعبر السماء من هناك مارة فى طريقها بإثنى عشر موضعًا أو أكثر.. ثم تصل فى نهاية الرحلة إلى جبل فى أقصى غرب العالم.. وهناك تنمو شجرة أسطورية أخرى تعرف بشجرة (جو) حيث يسطع زهرها بوهج ضارب إلى الاحمرار..

أما عقيدة الصين عن الفيضان فهى أكثر شمولًا وملخصها كالآتى:

كانت أمواه الفيضان القوية تنزل الدمار فى كل مكان.. وقد حدث سيل عظيم أغرق الجبال والأودية.. وصار الناس يئنون من الألم.. واستجابة لأنينهم إذا بكائن يشار إليه باسم (تى آى) يواجه الفيضان ومعه (كون).. وظلا تسع سنين يجاهدان بغير نجاح فى احتجاز المياه..

وفى نهاية الأمر توصلا إلى حفر قنوات لتصريف المياه فى البحر.. فعادت الأرض صالحة للسكنى.

وواضح أن الفيضان ـ أو الطوفان ـ ليس موضوعًا صينيا خاصًا وإنما هو يوجد فى نطاق واسع فى كل العقائد والشعوب.. خاصة فى الكتب المقدسة.

ونفهم مما سبق أن المعتقدات الصينية تضفى الطبيعة الإنسانية على قصصها وتصوراتها.. وربما تختلف هذه التصورات عن غيرها فى الحضارات الأخرى..

وتمر الصين بمراحل سياسية مختلفة.. ويسود فيها نظام الإقطاع حيث يسمح للملك أو الحاكم بأن يعين أقاربه وأبناءه وكأن الحكم صار وراثيا.. ثم تبدل هذا النظام واعتمد الحكم على الرجال الأكفاء.. حتى إن بعض الأرستقراطيين صاروا مجرد عالة على المجتمع..

ومنذ ألفين وخمسمائة سنة كان يحكم إقليم (تشو) حاكم يسمى (شوليانج هيه) من أسرة ملكية..

واشتهر هذا الحاكم بالشجاعة والقوة.. وكان متزوجًا وله تسع بنات.. وتقضى التقاليد أن البنات عندما يكبرْن ويتزوجْن يعبدْن أرواح أسلاف أزواجهن.. وكان (شوليانج) يريد أن يكون له ولد يعبد روحه بعد مماته.. وماتت زوجته وتزوج أخرى فولدت له طفلًا ذكرًا أطلق عليه (تشيمو) وذلك فى عام 551 ق.م.. فسعد الملك به سعادة كبيرة..

وما إن بلغ (تشيمو) الثالثة من العمر حتى مات أبوه.. تاركا زوجته تدبر أمر تربية الطفل وحدها..

وقد أظهر الطفل تفوقًا وذكاء مع معلميه.. وكان يتميز بالفصاحة والقدرة على الحوار والحكمة.

وتزوج (تشيمو) فى التاسعة عشرة.. وعمل فى وظيفة أمين مخزن حبوب.. وظل يترقى فى عمله حتى صار مشرفًا عامًا على حقول حاكم المقاطعة..

لكن ذلك كله لم يصرفه عن دراسة التاريخ والحكمة والموسيقى والشعر ثم ترك عمله ليعمل بالتعليم.. فأقبل عليه التلاميذ من كل مكان يتلقون منه العلم والحكمة..

وكان التلاميذ يطلقون على (تشيمو) اسم (كونج ـ فو ـ تشى) أى كونج الفيلسوف.. ومن هنا بدأ تحريف الاسم ليصبح (كونفوشيوس) وفى الثالثة والعشرين من عمره ماتت أمه.. فأحدث ذلك صدعًا فى نفسه جعله يستقيل من كل شىء.. لدراسة تاريخ شعبه وفلسفته..

وتنتشر شهرة (كونفوشيوس) فى كل مكان.. وبدأ المريدون يأتون إليه من الأقاليم البعيدة ليستمعوا إلى كلماته ومواعظه..

لقد رأى (كونفوشيوس) معاناة عامة الشعب.. كما أدرك أن العالم مفكك تفككًا يبعث على الحزن.. ولابد من إصلاح العالم.. وكان يقول:

ـ من الصعب أن نتوقع أى شىء من أناس يمتلئون من الطعام طوال اليوم فى حين أنهم لا يستعملون عقولهم فى أى شىء على الإطلاق.. بل إن المقامرين يفعلون شيئا.. وفى هذه المرتبة هم خير من هؤلاء الكسالى.

لم يكن (كونفوشيوس) إذن مسالمًا.. وكان يرى القوة هى الملجأ الأخير لسلطة العدالة وفى ذلك يقول:

ـ لو أننى أحسست بقلبى أننى مخطئ وجب على أن أقف خائفًا حتى لو كان خصمى أقل الناس قوة.. لكننى لو أحسست أننى على صواب فسأسير قدمًا حتى لو كنت أواجه آلافًا أو عشرات الآلاف..

وقد اجتهد (كونفوشيوس) أن يحيل الأشخاص ذوى الأصل الوضيع إلى سادة قادرين على العمل فى كل مكان.. وقد استخدم عبارة (لى) التى تعنى (قواعد اللياقة) أو (الشعائرى).. لكى يحدث صلة بين الحياة العملية والطقوس الدينية.. ولهذا كانت الأخلاق تمثل جانبًا كبيرًا من فلسفته وتعاليمه..

وهناك مفهوم آخر له أهميته فى فلسفته وتربيته وهو مفهوم (الطاو) الذى يعنى (الطريق) أو (السبيل) وكانت هذه الكلمة قبل (كونفوشيوس) تعنى طريق السلوك الذى قد يكون صالحًا أو طالحًا فى غير تمييز.. لكن المفهوم بعد ذلك اتخذ نمطا تصوفيًا ليشمل كل شىء فهو عند (كونفوشيوس) يعنى الأدب والأخلاق ويهدف إلى السعادة فى هذه الحياة وفى ذلك يقول:

(لو أن إنسانًا سمع فى الصبح كلمة (الطريق) فلربما مات مساء نفس اليوم غير آسف)

ومن ثم رأى (كونفوشيوس) الطريق مطلقًا كونيًا يقوم على المبادئ والأخلاق والمثل العليا والبحث عن الفضيلة أو على حد قوله:

ـ الرجل الفاضل حقا هو من يرغب فى تثبيت أقدام الناس كما يرغب فى تثبيت أقدامه.. يريد لنفسه النجاح.. ويكافح ليساعد الآخرين لينجحوا ويجد فى أمنيات قلبه المبدأ لسلوكه تجاه الغير فى منهج الفضيلة الحقة.

وعندما بلغ (كونفوشيوس) الثانية والخمسين كان قد قام بدور كبير فى تعليم أبناء الصين الحكمة والمبادئ.. وكان تعليمه شفويًا لا يلجأ فيه إلى الكتابة..

وحدث أن التقى فى طريقه بامرأة تصرخ وتستغيث فى قلب الصحراء فسألها عن سر صراخها فقالت: إن نمرًا مفترسًا قتل والد زوجى فى هذا المكان.. كما افترس النمر نفسه زوجى وولدى الصغير..

فسألها (كونفوشيوس): ولماذا تبقين فى هذا المكان القفر وفيه هذا النمر المتوحش؟

أجابت المرأة: لأنه لا يوجد هناك غير حاكم ظالم.

وعندما سمع الحكيم منها ذلك قال لتلاميذه: اكتبوا عندكم أيها التلاميذ أن الحاكم الظالم أخطر على الناس من النمر المفترس!

وكان شديد العطف على الحيوان، حتى إنه لم يكن يلبس سوى الملابس المصنوعة من الكتان ـ بالرغم من انتشار الأقمشة الحريرية ـ وعندما سأله أحد تلاميذه فى ذلك قال:

ـ أنا لا أستبيح لنفسى أن أقتل دودة القز لأستولى على نسيجها وأصنع منه ردائى..

ولما سألوه: لماذا لا تشرب اللبن؟.. قال:

ـ لأن اللبن من حق الرضيع من البهائم والأطفال.

وكان تلاميذه يصفونه بأربع صفات:

ـ فهو لا يجادل وفى عقله سابق رأى.

ـ ولا يتحكم فى الناس ويفرض عليهم عقائده..

ـ ولم يكن عنيدًا..

ـ ولم يكن أنانيًّا..

وقد كانت مدينة (جونج دى) تشكو من الفساد والجريمة والشر.. وكان لابد من العلاج وتغيير هذا النمط.. فأخذ الناس يبحثون عن منقذ يغير هذا الشر.. فانطلقوا إلى (كونفوشيوس) وعرضوا عليه أن يكون قاضى القضاة..

وكان هذا المنصب يشبه منصب العمدة.. فقبل الحكيم وتولى المنصب وتبدل كل شيء إلى الأفضل.. وأصبح الأمان والوفاء والشرف والأمانة والعفاف شيمة كل الناس.. وبهذا صار (كونفوشيوس) معبود كل الشعب..

وحينما سمع بذلك أمير (لو) استدعاه وسأله: كيف فعلت ذلك؟ فقال: كنت أكافئ الصالحين وأعاقب الأشرار.. فرأى الناس أنه من الأفضل أن يكونوا صالحين فيكافأوا عن أن يكونوا أشرارا فيعاقبوا.. وهكذا تحولوا جميعا إلى صالحين..

فأعطاه الأمير منصب وزير الجرائم فى إمارته.. فأخذ يدرس حال السجون فاكتشف أن المساجين من الفقراء.. أو الجاهلين.. وكان لابد أن يتعلم الناس ليقضى على الجهل.. ويعمل الفقراء بالصناعات والحرف فيكسبوا عيشهم بشرف..

وتحدث مكيدة يخرج (كونفوشيوس) بعدها مغْضوبًا عليه من الإقليم ومعه مريدوه يبحثون عن حاكم يحب الخير والعدالة فلم يجدوا أحدًا لمدة خمسة عشر عامًا.. ثم عاد (كونفوشيوس) إلى إقليم (لو) بعد موت حاكمها الذى طرده وتولى غيره.. وعرض عليه الحاكم الجديد أن يكون كبير مستشاريه لكنه فضل أن يعيش سنواته الباقية فى عزلة خاصة..

وقد لخص (كونفوشيوس) حياته وعقيدته فى قوله:

ـ كنت فى الخامسة عشرة من عمرى مكبًّا على العلم.. وفى الثلاثين وقفت ثابتا لا أتزعزع.. وفى الأربعين زالت شكوكى عنى.. وفى الخمسين عرفت أوامر السماء.. وفى الستين كانت أذنى عضوا طيِّعا لهذه الحقيقة.. وفى السبعين كان بوسعى أن أطيع ما يهواه قلبى دون أن يؤدى بى ذلك إلى تنكب طريق العدل والصواب..

وسئل (كونفوشيوس): هل هناك حياة بعد الموت؟

فأجاب: إذا كنا لا نعرف شيئا عن الحياة فكيف نعرف شيئا عن الموت وما بعد الموت.؟

لقد كان (كونفوشيوس) رجل أخلاق.. ورجل دين تمثلت فى تعاليمه العقائد الصينية القديمة برغم ابتعاد تعاليمه عن ذكر ما يتعلق بالسماء والطقوس والآلهة.. وهو لم يفعل ذلك عن جهل أو استخفاف ولكنه كان يرى أنها ليست من جوهر الدين فى شىء..

فالعقيدة التى دعا إليها تدخل فى إطار ما يسمى (بالمذهب الإنسانى) أى أنه يعظم من قدر الإنسان فى الوجود ولا يعتمد على أى كائن علوى أو خرافى كما تعتمد عليه العقائد الأخرى.. فالإنسان بذاته يستطيع بلوغ السعادة والتقدم.. وبالطبع تحدث (كونفوشيوس) عن عدالة الحكم وفساد الحكم.. وكيف يتطهر الحاكم حتى يعكس ذلك على شعبه.. فإذا صلح الحاكم صلحت الرعية..

ويرحل (كونفوشيوس) عن الدنيا عام 478 ق.م ويعلن تلاميذه الحداد على موته ثلاثة أعوام كما لو كان أباهم.. بل بنى بعضهم أكواخا صغيرة على مقربة من قبره ظلوا فيها طوال أيام حزنهم يدرسون تعاليمه ويحيون ذكراه..

واستمرت الكونفوشيوسيه قرونًا طويلة.. وكان إمبراطور الصين يضع كل عام على قبره قربانًا حيوانيًا.. ثم عبده الصينيون وشيدت له المعابد فى عاصمة كل مقاطعة فى الصين..

وقبل أن نطوى صفحة (كونفوشيوس) وتعاليمه.. علينا أن نذكر حكيمًا آخر كان معاصرًا له يسمى (لاوتسى).

ويقال إن (لاوتسى) ولد عام 571 ق.م. وقد نشأ فى أسرة عريقة وعمل أمينا لوثائق القصر فى العاصمة. وودع بلاده وهو لايزال فى منتصف العمر

مهاجرًا إلى الغرب البعيد حيث عاش فى عزلة عن الناس حتى بلغ التسعين أو يزيد..

والتقى الحكيمان يومًا وبدآ يتحاوران.. وتحول الحوار إلى خلاف حاد.. ويحكى (كونفوشيوس) عن هذا اللقاء فيقول:

- إننى أعرف كيف يطير الطير.. وكيف يسبح السمك فى الماء.. وكيف تجرى الحيوانات.. لكن هناك تنينًا لا أعرف كيف امتطى الريح وبسط السحاب وطار إلى السماء.. لقد قابلت اليوم (لاوتسى) وأستطيع أن أقارنه بذلك التنين.

ولقد انزعج (كونفوشيوس) حينما وجد (لاوتسى) يقابل الأذى بالرقة ويدفع الظلم بغير ظلم.. فقال له: معنى ذلك أنك تقابل الخير بالخير كما تقابل الشر بالعدل..

فأجاب (لاوتسى) لابد أن أكون خيرًا مع الأخيار.. أما الأشرار فلابد أن أكون خيرًا معهم أيضًا.

وقد سجل (لاوتسى) تعاليمه فى كتاب صغير هو (الطريق إلى الفضيلة). ونلاحظ أنه كتاب أودعه الحكيم آراءه وتعاليمه مؤكدًا أن من يريد أن يحيا حياة صالحة يجب أن يتبع (الداو) أو الطريق أو (طريق الله).

إن (كونفوشيوس) لا يدعى معرفة شىء عن الله فى سمائه ولكنه يعلم الناس أنهم يجب أن يحاولوا أن يكونوا صالحين. وأن الله يمكن أن يُعنى بنفسه.. على حين يقول (لاوتسى) عكس ذلك تمامًا.. فهو يعلم أن أول واجب للناس الذين يريدون أن يحاولو يحيوا حياة فاضلة صالحة هو الإيمان (بداو) أى طريق الله.. وأن الدنيا هى التى ستعنى بنفسها بعد ذلك..

وبينما يعلم (كونفوشيوس) الناس أنهم يولدون أخيارًا.. ويمكنهم أى يظلوا عن طريق التعلم كذلك.. فإن (لوتسى) يقول إنه ليس من الضرورى أن يتعلم الناس شيئا من أجل أن يعرفوا طريق الله.

ويقول (لاوتسى):

- الرجل الصالح حقا يحب الناس ولا يكره أحدًا قط.

هو إذن يميل إلى السكون والهدوء والاستسلام وهو أساس العقيدة (الداوية) فى إيمانها بالطبيعة والفطرة..

وإذا كان (الطريق) لدى (كونفوشيوس) بمعنى طريق السلوك الصحيح فى الحياة.. فهو لدى (لوتسى) الطريق إلى الحياة الأبدية أو على حد قوله: هذا هو طريق الأبدية.. طريق الرؤية الدائمة..

والهدف من التصوف (الداوى) هو العودة إلى الطبيعة الأصلية.. إلى لبساطتها وبراءتها.. وصفائها الأول.. كما تتمثل فى كتلة الخشب الخام التى لم تمسها يد بشر..

وهناك عقبات كثيرة تحول دون السير على طريق الأبدية منها: الأنانية.. والسعى الدائب إلى الكسب والشهرة والنجاح.. وهناك قوانين الحكم والتعلم..

وطريق الحكيم إلى السعادة يتلخص فى التخلى عن الفعل.. وعدم العمل عن طريق الحد من الكلمات والأفعال.. ولا يعنى ذلك الكسل أو التواكل والجمود.. بل هو عدم (التدخل) فى مجرى الطبيعة..

فالحكيم فى هذه العقيدة لا يشتهى شيئا.. وهو ينشد السعادة الروحية بقدر ما هى سعادة جسدية.. فالحياة الأبدية إذن هى استمرار للحياة الجسدية..

كانت تعاليم (لاوتسى) إذن انقلابًا على الدين التقليدى فى الصين.. وانطلاقًا فى سبيل المطلق والفطرة الإنسانية.. فالداويون متصوفون يندمجون فى الطبيعة ويمقتون النفاق.. ويقدمون الحكمة على المعرفة.. ويتحررون من كل رغبة فى الامتلاك.

وبعد موت (لاوتسى) بسنوات تحولت الداوية من عقيدة فلسفية إلى عقيدة تؤمن بمعبودات لم يذكرها زعيمهم نفسه.. وراح أتباعه يعبدون كل أنواع التنانين والفيران.. وبنات آوى.. والثعابين.

وبدأو يعتقدون فى أشياء غريبة.. فآمنوا بأن هناك رمادًا معينا ونوعًا آخر من الحجارة والكتابة لها قوة أكثر من السحر.. إذا حملها الإنسان.. فإن الرصاص لا ينفذ فيه ولا يستطيع أن يقضى على حياته.. بل إن حامله لا يمكن أن يغوص فى الماء قط ـ كما لا يمكن للنار أن تحرقه.

وبمرور الزمن زاد اعتقادهم فى الجن والشياطين والمردة ومصاصى الدماء والغيلان وكل أرواح البشر.. وأخذوا يحكون عن ذلك قصصا وروايات وأساطير..

وازدادت هذه التعاليم فأضافت السحر بمرور الزمن.. وصار عدد كبير فى الصين يؤمنون به.. ويخافون السحرة والكهنة الذين ادعوا أن لهم سلطانًا على الأرواح الشريرة.

بل إنهم تحولوا إلى عبادة (لاوتسى) نفسه وجعلوا منه إلهًا معبودًا وادعوا أن أمه حملت به حملًا سماويًا.. وأنه ولد كامل العقل. وصارت الصين تتنازعها عقديتان: الكونفوشيوسية والداوية ثم انتشرت تعاليم بوذا فى الصين ولكن بتغيير كبير.. حتى صارت الصين اليوم لها ثلاث عقائد ولكل عقيدة أتباعها ومريدوها..

[11]
عقائــد اليابــان

اليابان: هذا القوس العظيم المصوب نحو المحيط الهادى.. حيث تقع غير بعيد من الساحل الشرقى الأسيوى.. ويتنوع فيها المناخ حيث يتراوح من المناخ الشمالى البارد فى أقصى الشمال إلى الجنوبى شبه المدارى.. وقد وهبت الجزر الجبلية وفرة وتنوعًا فى جمالها الطبيعى الذى تأثر به اليابانيون على مدى العصور..

ويذكر تاريخ الجزر اليابانية منذ قرابة خمسة آلاف عام أن هناك تيارَيْن من الأقوام الذين نزحوا إليها.. الأول: تيار شمالى يظهر سلالة من أقوام أوراليين (من قبائل المغول والهون) أما الثانى فهو تيار جنوبى متصل بحضارة البحار الجنوبية.. لكن هذين التيارين على مدى التاريخ امتزجا وكونا الجنس اليابانى..

وما يهمنا هنا أن العقيدة اليابانية قد اتجهت إلى الطبيعة لتؤكد الهدوء والجمال أكثر مما تؤكد الاضطراب والكوارث والتهديد. فلا وجود فى العقائد والأساطير لمعبودات تهدد البشر أو تقهرهم.. ومن ثم كانت نظرتهم للعالم روحانية وصارت الطبيعة كالناس متحركة مشبعة بروح حيوية.

وتميزت العقيدة بكلمة (كامى) التى تعنى (الجزء الأعلى) أو (المتفوق) أى أنها تهدف إلى القوة والجمال والإجلال.

وقد وصل إلينا هذا التصور عبر سجلات الآثار القديمة اليابانية (كوجيكى) والتى تتضمن مزجًا للعادات والطقوس والممارسات السحرية

فى ديانة (الشنتو) اليابانية.. وقد أمر بجمعه الإمبراطور اليابانى (تمنو) الذى قصد المحافظة على معتقدات (الشنتو) الوطنية فى مواجهة النمو القوى للديانة البوذية التى بدأت تضرب بجذورها فى اليابان.. وكان ذلك ما بين عامى (673-686م).

أما المصدر الآخر فهو (النيهونجى) أى حوليات اليابان والذى يضم الثقافة اليابانية القديمة حتى القرن الثامن الميلادى..

وكان اليابانيون فى بداية عهدهم يرون أن العالم مكان صغير جدًا.. وأنهم وحدهم أهل هذا العالم.. ولا أحد يوجد غيرهم.. بل إن أرضهم التى كانوا يسمونها الجزر الثمانى العظيمة هى كل العالم بما يحيط بها من ماء وجزر.

حتى السماء.. رأوها سماءهم وحدهم.. وهى قريبة منهم.. بل ظنوا أن سهمًا طويلًا جدًا سبق وأطلق من الأرض فنفذ وصنع ثقبا فيها.. ومن هذا الثقب هبطت على الأرض الأشجار والأعشاب وجميع الكائنات الحية من إنسان وحيوان وحشرات وزواحف..

والسقوط من ثقب السماء هى عقيدة خلق الكون لدى اليابانيين. ولهذا فإن السماء دائمًا مملوءة بآلاف الأشياء الأخرى التى تهبط دائمًا من هذا الثقب كما اعتقد اليابانيون أن الحياة فى السماء لا تختلف عن الحياة فوق الأرض إلا أنها أكثر جمالًا وصفاء..

أما تحت الأرض فهى طبقة مختلفة وعالم آخر.. يوجد فيه بشر كما هى الحال فوق الأرض إلا أنها ليست حياة جميلة..

وهذا العالم السفلى يمكن الهبوط إليه عن طريق باب مفتوح يمكن لأى بشر الدخول منه بلا صعوبة..

ويعتقد اليابانيون أن زلزالًا كبيرًا حدث فأغلق هذا الباب الذى يؤدى إلى العالم السفلى..

كما يعتقدون كذلك أنه كان بين السماء والأرض جسرٌ أو مصعد يصعد عليه الناس حينما يريدون زيارة السماء.. وانكسر هذا الجسر ذات يوم ولم يستطع أحد إصلاحه.. فانقطعت الصلة بين السماء والأرض..

كانت إذن عقيدة اليابانيين تعتمد على تصورات بسيطة جدًا.. ولم تكن فى حاجة إلى نبى أو مرشد يضع لهم طقوسهم وعبادتهم.. فالطبيعة أمامهم مجال رحب لعبادتهم حيث تسكنها أرواح كثيرة فى الشجر والنجوم والشمس والجبال والأنهار.. والصلاة لهذه العناصر تجعلها راضية.. تستجيب لرغباتهم وآمالهم..

وهذه العقائد ضمتها عقيدة واحدة تسمى (الشنتو).. وكانت تطلق عليها (كانى ـ نو ـ ميشى).. ومعناها: الطريق إلى الأرواح الخيرة.. وربما أخذ هذا المعنى من الفيلسوف الصينى (لاوتسى)..

وكما كان اليابانيون يعتقدون فى الأرواح الحية.. كانوا أيضًا يخافون الموتى ويعبدونهم خوفًا من غضبهم عليهم.. ولهذا كانوا يضعون فى قبورهم ـ مثل المصريين ـ هدايا ونفائس ثمينة منها السيف للرجل.. والمرآة للمرأة..

ووصل بهم الأمر إلى التضحية بالبشر خاصة إذا أبى المطر أن يتوقف..

و سادت عبادة اليابانيين للأسلاف خاصة سلسلة الأباطرة والملوك السابقين والذين يحكمونهم أيضًا.. ولهذا وجدناهم يقدسون الإمبراطور الحاكم (الميكادو) لأنه فى تصورهم أقرب شبها للشمس والقمر أو جبل (فوجى المقدس) وهو كالآلهة يجب أن يعبد..

ولأن لكل شعب قديم تصوره عن قصة الخلق. فإن لليابانيين أيضًا تصورهم الطريف عن هذا الموضوع.

ففى البدء كان العالم محيطًا من زيت.. أو مثل بيضة غير محددة الشكل.. ولكنها تحتوى على بذرة الحياة.. ومن هذا الخليط انبعث بُرعم البوص.. وخرج منه براعم كثيرة تشخص القوى المتفاعلة مثل الطين والأبخرة والبذور.. وبأمر من (الآلهة السماوية) التى خلقت من قبل.. تولى إلهان شابان تعمير الأرض هما الإله الصغير (إيزاناجى) والإلهة الصغيرة (إيزانامى).

انزلقا معًا فوق جسر السماء إلى ماء الأرض..

وفى نهاية هذا الجسر ـ الذى يشبه القوس (قوس قزح) وقف إيزاناجى وفوق رأسه إكليل من النور يطل إلى رفيقته إيزانامى بجمالها الرائع.. أمسك إيزاناجى رمحه الطويل وتحسس به صفحة المحيط لعله يجد شيئًا صلبًا يتخذه مقرًا له ولرفيقته.. وظل يبحث طويلا بلا جدوى..

وحينما يئس الإله الصغير رفع رمحه من الماء فى غيظ فتساقط من الرمح قطرات من الماء راحت تتجمع وتتكثف وتتجمد وتمتد فوق صفحة المحيط لتصبح أرضًا صلبة واسعة وكونت أول جزيرة فى الماء هى جزيرة (أناجورو) وفرح الإلهان بذلك وأسرعا وهبطا فوق الجزيرة الجديدة وجعلاها مركز انطلاقهما وعملهما..

وهنا نظر كل منهما إلى الآخر.. وأحسّا بشىء جديد فى مشاعرهما.. لعله العاطفة والحب..

لكن كيف يتحدان معًا.. ويكمل كل منهما الآخر..

لقد لاحظا عصفور أبى فصادة يحرك بصورة مميزة رأسه وذيله بعنف للأنثى فأدركا من ذلك لقاء الذكر بالأنثى.. وبعد أن التقيا نشأ عدد كبير من الجزر وعدد كبير من أطفال الآلهة.. التى هى الجبال والأمواج والنار وغير

ذلك. وكان عدد الجزر التى تكونت من هذا الزواج أربعة آلاف ومائتين وأربعًا وعشرين جزيرة هى مجموع جزر اليابان.. بكل ما فيها من جبال وأنهار وصخور.. وبكل ما فيها من بشر وحيوان ونبات تساقطت من ثقب السماء..

وولدت إيزامامى ربة الشمس (أماتيراسو) لتستقر فى السماء وتضىء الأرض.. ثم ولدت إله القمر (نسوكى) حيث أرسله أبواه على قوس قزح ليستقر أيضًا فى السماء وينير الليل..

ومنح إله القمر الليل.. وربة الشمس النهار حتى لا يختلف الإلهان..

وحينما ولدت إيزانامى إله العواصف.. وإله النار.. أصيبت بحمى قاسية أحرقتها.. وكان لابد أن تنحدر إلى العالم السفلى بعيدًا عن الأرض التى أوجدتها حتى لا تحرقها..

وقد حاول الزوج أن ينقذ زوجته بلا جدوى.. فهرب من جحيم العالم السفلى إلى الأرض مرة أخرى..

وبدأت معارك كثيرة بين الآلهة.. منها هذا الصراع المرير بين الشمس والعواصف.. وانتهى بانتصار الشمس..

وكان إيزاناجى قد اشتاق لرؤية زوجته فى العالم السفلى.. أرض الظلمات - وكانت إيزانامى قد استقر بها الحال هناك وبنت لها حصنًا.. ويحاول زوجها إغراءها بالعودة إلى الأرض لكى يكملا أعمالهما الخلاقة.. لكنها تقنعه بأن الأوان قد فات لأنها أكلت من طعام أرض الظلمات..

وتطلب الزوجة من زوجها أن يتركها فى حالها وينسحب.. لكنه لم يستجب ويكسر السن الأخير من مشطه ويشعله ثم يدخل حصنها فيجدها فى حالة مروعة من التحلل تغطى جسدها الديدان.. فيرتاع لهذا المنظر

ويهرب.. غير أن زوجته الغاصبة أرسلت فى عقبه ساحرات أرض الظلمات (شيكومى).. وكان إيزاناجى فى فراره قد ألقى غطاء رأسه وراءه.. فسرعان ما تحول إلى شجرة عنب ضخمة توقفت الساحرات لالتهامه.. لكن الساحرات تستأنف تعقبه. فينزع إيزاناجى المشط الأيمن من شعره ويلقى به وراءه فيتحول إلى براعم من خيزران تنتزعه الساحرات وتأكله..

ويفاجأ إيزانامى بأن زوجته ترسل جيشًا من ألف وخمسمائة مقاتل فيلوح لهم بسيفه الطويل.. ويوقفهم حتى يصل إلى الممر بين عالم النور وعالم الظلمات فيجد ثلاث خوخات يرجم بها المقاتلين الأعداء فيتقهقرون.. ويفلح ايزاناجى فى سد هذا الممر بصخرة كبيرة..

وتحكى الأسطورة أن إيزانامى تهدد زوجها بقتل ألف كائن كل يوم فيرد عليها إيزاناجى بأنه سوف يقيم كل يوم ألف بيت ولادة.. ولم يكن أمامه سوى النطق بصيغة الطلاق للأبد..

وهذه الأسطورة تفسر لنا كثيرًا من عقائد اليابانيين عن قصة الخلق وقد نجد تشابهًا مثلها فى عقائد الإغريق خاصة بين أورفيوس ويوريديس حيث ذاقت برسيفون طعام أرض الظلمات ولهذا السبب لا يحق لها العودة إلى أرض النور..

وكما حدث هذا الصراع بين الإلهين الزوجين.. كان الصراع بين الآلهة الأخرى أيضًا على أشده..

ومن ذلك مثلا أن ابنة ملك الجبل المقدس كانت حسناء جميلة وقع فى هواها ابن السماء.. وحينما انطلق يطلب يدها رفض أبوها إلا أن يزوجه ابنته الكبرى معها.. برغم دمامتها وقبحها.. وكانت هى ربة الصخور فاضطر ابن السماء (نينجى) أن يتزوج الاثنتين.. لكنه بالطبع كان أكثر ميلًا إلى الابنة الحسناء.. مهملًا للابنة القبيحة..

وتبدأ الغيرة.. والانتقام..

لكن الأحداث جعلت (نينجى) يغار على زوجته الحسناء. وتدرك الزوجة ذلك فتفضل أن تشعل النار فى نفسها وتتخلص من هذه الحالة التى أدخلتها فى شقاء عميق..

ومن بين ألسنة اللهيب خرج ثلاثة أطفال كان من بينهم (هورى) الذى هو بداية سلسلة متصلة الحلقات من (الميكادو) أباطرة اليابان..

ولهذا عبد اليابان الميكادو.. وكانت هذه العقيدة أساس (الشنتو) حيث تقضى بتقديس الامبراطور وإظهار الولاء والعبادة له..

ورغم ظهور البوذية فى بلاد اليابان فإن عقيدة (الشنتو) كانت تواصل سيرها بقوة وانتشار..

وهناك أسطورة أخرى لها مغزى مهم.. تقول بأن إله القمر (تسوكى) تلقى أمرًا من إله السماء بالهبوط والقيام على خدمة إلهة الطعام (كيموشى) فوصل إلى مقرها ورحبت به ثم حولت رأسها تجاه الأرض وأخرجت من فمها أرزًا مطبوخًا.. ثم اتجهت إلى البحر.. فاندفع منها كل أنواع السمك وواجهت الجبال فانطلقت منها الحيوانات البرية.. وقدمت كل هذا إلى إله القمر فى مأدبة عظيمة.. غير أن إله القمر غضب غضبًا شديد لما رآه من قذارة الطعام.. فاستل سيفه وقتل آلهة الطعام وعاد إلى السماء يروى ما حدث لأخته إلهة الشمس فغضبت منه وأقسمت بعد ذلك ألا يلتقيا وجها لوجه.. ولهذا عاش القمر والشمس بعيدين يفصلها الليل والنهار. غير أن القصة لا تنتهى عند هذا الحد.. حيث يرسل الإله مبعوثًا آخر إلى إلهة الطعام المقتولة.. فيتبين أن عددًا آخر من الأشياء قد نتج عن جسدها الذى لا حياة فيه..

فمن رأسها نتج الثور والحصان.. ومن جبهتها الذرة الرفيعة.. ومن حاجبيها دود القز.. ومن عينيها العشب.. ومن جوفها الأرز.. ومن أعضائها التناسلية القمح والفول..

ويذكر تاريخ العقائد أن اليابانيين قد تعلموا من الصين فلاحة الأرض وزراعتها وتربية دود القز.. وتعلموا الكتابة والتصوير وبعض الصناعات الصغيرة..

كما أخذ اليابانيون عن الصين تعاليم كونفوشيوس.. ثم دخلت البوذية من الهند إلى الصين إلى اليابان.. لكنها لم تكن بوذية الهند.. حيث عُبِد بوذا نفسه وإلى جواره معبودات أخرى كثيرة.. ومع ذلك فقد أقيمت معابد بوذية كثيرة فى اليابان.. بل أصبحت أكثر العقائد انتشارًا لدرجة أنها تهدد عقيدة (الشنتو) نفسها..

لكن (الشنتو) حينما قدست (الميكادو) ساعد ذلك على بقائها حية بين شعب اليابان.. بالإضافة إلى تشابه بعض تعاليمها بتعاليم كونفوشيوس من حيث (الطريق إلى الخير) ـ طريق الفرسان أو النبلاء.

وكان الحكم فى اليابان بزعامة (الميكادو) أو الامبراطور.. ثم الحاكم العسكرى الذى يحيط به فئة المحاربين الذى أطلق عليهم اسم (الساموراى) وهم فرسان وطنيون.. وعلماء مهذبون نبلاء.. يحافظون على سيوفهم ومن حق الساموراى أن يستخدم سيفه ضد أى إنسان من الطبقات الدنيا إذا أساء إليه..

وكان الساموراى يعيش حياة خشنة مقترة.. لا يأكل إلا وجبة واحدة فى اليوم وهم يطيعون رؤساءهم لأن طاعة الرئيس هو جزء من التشريع والعقيدة.

لكن الأيام قد شهدت تحولًا فى البوذية جعلت الكهنة لهذه العقيدة ينحرفون عن الدين من أجل الحصول على نفوذ سياسى أو سلطان.. مما جعل البوذية تفقد سلطانها على اليابان.. واتجه الناس إلى الكونفوشيوسية وإلى الشنتو.. وبهذا شملت اليابان ثلاث عقائد.. وتوزع الناس على هذه العقائد كل بقدر إيمانه وتفكيره..

وواضح مما سبق أن العقيدة اليابانية تمتزج بالأسطورة.. التى تؤله ظواهر الطبيعة.. ولكنها لا تصبغ بالصبغة الإنسانية.. ونتيجة لذلك يهدف جزء هام من هذه الأساطير إلى إقامة علاقة بين مولد الآلهة وما يقابلها من الأشياء الأخرى والكائنات المختلفة.. فليس الخلق نتيجة قوة خارجية أو (علة أولى) وإنما يحدث نتيجة التزاوج بين الآلهة.

ونلاحظ أن اليابانيين يحبون الطبيعة ويقدسونها.. وينعكس ذلك على الفنون والشعر والتصوير والعمارة.. فبيوتهم بسيطة منسقة لا تخلو من كل ألوان الجمال..

ولابد أن عقيدتهم البسيطة الطبيعية هى التى جعلتهم بهذه البساطة أيضًا.. فمازال الناس يؤمنون بطرق السماء المشرقة البعيدة التى آمنت بها عقيدة (الشنتو) ولا يزال الناس يرددون:

الحياة أشبه ما تكون برحلة طويلة

يحمل فيها الراحل حملًا ثقيلا

فاجعل خطاك وئيدة ثابتة

حتى لا تتعثر..

وانظر إلى السخط نظرتك إلى عدوك

واكشف عن الخطأ فى نفسك

قبل أن تكشف عنه فى غيرك
والتفت إلى الأشياء القريبة
والتفت إلى وطنك يا صديقى
وحاول أن تؤدى واجبك نحوه
حتى آخر يوم فى عمرك..

[12]
عقائـــد المكسيـــك

بلغنا منذ سنوات أن بالمكسيك أهرامًا قديمة تماثل أو تشبه أهرام الجيزة. مما يدل على أن هذه المنطقة البعيدة كان لها تاريخ وحضارة وعقائد خاصة.. ولقد ترك هنود هضبة المكسيك الوسطى تراثًا تسجيليًّا يتكون من مخطوطات وتماثيل.. ومأثورات وصور للآلهة تفسر حضارة (الأزتك) الرفيعة. ومن بين التماثيل المهمة.. تماثيل (للإله الشيخ) إله النار نفهم منها أن الهضبة الوسطى فى المكسيك قد أقامت مركزًا دينيًّا مهيبًا سمى (مدينة الآلهة).

ويبدو أن أتباع (الإله الشيخ) قد اتصلوا بالأقوام المهاجرة من الشمال الشرقى على ساحل الخليج.. وهؤلاء الأقوام حملوا معهم معتقداتهم التى تتصل بإله أعلى يسمى (سيد كل مكان شبيه الليل والريح)..

ومن هنا امتلأت المكسيك بآلهة مختلفة تواصلت فيما بينها واختلفت أحيانًا. ونفهم من الوثائق أن هذا الإله الأعلى (سيد كل مكان) قد طور نفسه مع الأيام من العبادة القديمة للشمس والأرض ليكون كائنًا مزدوجًا يحمل مصدر الخصب والأم الكونية.. لكنه لم يفقد أبدا وحدانيته.. حيث تدعوه الترانيم القديمة بصيغة المفرد (سيد كل مكان).. هو إذن ـ عمليًا ـ إله مزدوج بأصل كل ما هو موجود لأنه منح فى تزاوج غامض أصل الحياة.. فهو أم الآلهة وهو أبو الآلهة معا.. وقد أنتج فى أول استنبات مولد أبنائه الأربعة: المرايا المدخنة: الأبيض ـ الأسود ـ الأحمر ـ الأزرق.. وهذه الآلهة تمثل القوة البدائية التى ولّدت تاريخ العالم.. وربما ترمز بهذه الألوان

إلى العناصر الطبيعية.. وأحيانًا إلى أقسام الكون الأربعة.. وأحيانًا ثالثة إلى عصور زمنية معينة تسمح للإله الأعلى بالاستمرار فى نشاطه المتعدد.. وعن طريق الآلهة الأبناء الأربعة أقام القضاء والزمان وجودهما المحسوس فى العالم الذى يمنح الجميع الحياة والوفرة.

ويقودنا هذا التصور إلى ما فعله هؤلاء الأبناء الأربعة لكى تتحقق الحياة.. ففى البدء عمل الأبناء معًا فى تعاون ووئام.. يقيمون دعائم السماء والأرض.. ويهيئون للموتى إقليمهم الخاص.. وبهذا ظهر للوجود أول ملمح من ملامح الحياة على الأرض.

لكن الأمر بين الآلهة الأربعة لم يدم طويلًا على هذا النحو من الوئام.. فسرعان ما خرج أحدهم على هذا الوئام برغبة السيطرة على إخوته.. فحوَّل نفسه إلى الشمس.. وأسس على الأرض مجىء أول إنسان خلق من رماد.. ولم يكن له طعام سوى ثمار البلوط..

وأحدث هذا التحول ثورة لدى إخوته الثلاثة.. إذ كيف يسمح لنفسه بالتسلط ووضع نفسه فوقهم.. فتقدم أحد الثلاثة ودمر الشمس والأرض.. وبذلك اختفى كل شىء.. واجتاح الماء كل مكان.. فصار الناس سمكا.. وبهذا التحول العنيف انتهى العصر الأول ـ أو عصر الشمس ـ كما يسميه الهنود.

أما العصر الثانى فقد جاء معه العماليق.. تلك الكائنات العجيبة التى كانت تحيتهم لبعضهم تقول: لا تسقط فإن من يسقط يسقط إلى الأبد.. وفى هذا العصر انهارت السماوات.. ودمرت وحوش الأرض كل شىء..

أما العصر الثالث فقد أحدث فيه أحد الآلهة الأربعة مطرًا من النار أتى على كل شىء..

أما العصر الرابع فقد حدث الخراب الكبير نتيجة الريح العاصفة..

وهكذا دمر الكون أربع مرات متعاقبة نتيجة صراع الآلهة الأبناء الأربعة.. وكان لابد أن توضع خاتمة لهذا الدمار.. فاجتمع الأربعة من أجل التوفيق بين أطماعهم ولخلق عصر خامس جديد حيث يولد الإنسان.. وأطلق على هذا العصر (شركة الحركة) حيث يشترك الجميع فى كل شىء..

وكان أول عمل اشتركوا فيه هو إعادة إنشاء الأرض.. ولهذا استدعوا إله الأرض ـ وهو نوع من الوحش مخلوق كله من عيون وأفواه ـ ثم تحول اثنان من الآلهة الأربعة إلى ثعابين أحاطت بهذه الآلهة حيث ظلا يعتصرانها بقوة حتى شطراها شطرين.. أحدهما صنع سطح الأرض والآخر قبه الفلك. ثم نبتت الأشجار والنباتات والزهور والينابيع والأنهار والكهوف والجبال وبهذا نشأ كل ما هو كائن من واقع الآلهة الحى.

ولما استقر الأمر.. لجأ الآلهة الأربعة إلى خلق الشمس والقمر من جديد. وظلوا أربعة أيام حول (المدفأة الإلهية) يحاولون تقرير مَن يكون مِن الآلهة الذى يلقى بنفسه فى النار لتتحول إلى الجسم السماوى ـ الشمس ـ ووقع الاختيار على أحدهم.. ثم حدث الأمر نفسه مع القمر.. وبهذا عادت الشمس إلى النهار ـ والقمر إلى الليل.

ثم فكر الآلهة الأربعة كيف يعيدون إقامة الإنسان فوق الأرض فاقترح أحدهم ـ وكان رمزًا للعقل ـ الذهاب إلى إقليم الموتى ليبحثوا فيه عن العظام الثمينة للبشر الذين عاشوا عصورًا سابقة..

ولما كان الجميع مشغولين بأمور أخرى.. ذهب هذا الإله العاقل وحده لإنجاز هذه المهمة.. وبالطبع واجه صعابًا كثيرة.. وتمكن من جمع عظام رجل وامرأة وحملها إلى المكان الأسطورى (تاموانتشان)..

واجتمع الآلهة من جديد وطحنوا العظام فى حوض من الصلصال وقطروا فيه بعض دمائهم.. حتى تكوَّن الإنسان من جديد..

وكلف أحد الآلهة بمهمة الطعام.. وبدأ بالبحث عن الذرة.. وكان لابد له أن يبحث عن النملة الحمراء التى تحتفظ بالحب..

ويحول الإله نفسه إلى نملة سوداء.. ويلتقى النملة الحمراء وتسمح له باستخراج ما شاء من حبوب الذرة..

ولابد أن المكسيكيين من خلال هذه القصة عن خلق الحياة كانت لهم شعائرهم الدينية التى تدعو إلى استمرار الحياة والحركة فوق الأرض..

وتدين عقائد المكسيك إلى الكاهن العظيم (كوتزالكواتل) ويبدو أنه أخذ اسمه من الإله المزدوج الأعلى القديم.

ويتلقى العالم المكسيكى القديم حكمته وتعاليمه.. وقد كان هذا الكاهن كثير التأمل.. باحثًا عن أشكال جديدة من التصورات للإله الأعلى..

ويقول الكاهن الأعظم: إنه بحث عن الإله محاولًا أن يقترب من السر الأعلى للألوهية..

هى إذن نزعة تقترب من الصوفية..

ولهذا ظل يمعن ويكتشف صفات جديدة للإله المزدوج القديم رب الوجهين الواضحين: صاحبة التنورة المزخرفة للنجوم.. وصاحب النور فى كل شىء.. سيدة لحمنا.. ورب لحمنا.. داعمة الأرض والذى يسكن وراء دعامات السماوات التسع.. ويلخص الكاهن الأعظم تصوره هذا فى قوله:

إله واحد فقط كان لهم
إنه الواحد دون سواه
كانوا يدعونه وكان اسمه (كوتزالكواتل)
أما الحارس الأعلى لإلههم وكاهنه
فكان اسمه أيضا (كوتزالكواتل)
هذا الإله الأوحد

لا شىء يفرضه
ألا ثعابين
يجب أن تقربها إليه
وتضحى بها إليه..

تلك كانت إحدى الترانيم أو الأناشيد لهذا الإله المزدوج.. رمز الحكمة الذى منح العالم الحياة.. والذى يُضحَّى له ويصلَّى له..

وفى تلك العقيدة أيضًا فإن سطح الأرض يتكون من قرص عظيم يقوم وسط الكون الذى يمتد أفقيًا ورأسيا.. ومن حول الأرض المياه الشاسعة التى تجعل العالم محوطًا كله بالماء..

وتنقسم الأرض إلى أربعة قطاعات تمتد حيث تنفتح من مركز العالم إلى حيث يتصل الماء بالسماء.. فى نقطة تسمى (المياه السماوية)..

أما الأقسام الأربعة: فالشرق تطلع منه الشمس وهو منطقة الخصب والماء والضياء ويرمز له باللون الأبيض..

والشمال منطقة الموت وهو القسم الأسود من الكون..

والغرب مسكن الشمس بعد غروبها حيث منطقة اللون الأحمر..

أما الجنوب فهو يقع إلى يسار مجرى الشمس وهو موضع الشوك واللون الأزرق..

وفوق الأرض تقع السماوات فى تسع طبقات.. وترتبط بعالم الموتى.. وأعلى هذه الطبقات يوجد الإله المزدوج مانح الحياة وحارس الكون من الدمار وهو (سيد كل مكان) يحكم حركة الشمس والقمر والنجوم (التى هى التنورة التى تستر مظهرها الأنثوى)..

ونلاحظ أن الكاهن العظيم (كوتزالكواتل) كان يرمز إلى الإنسان البطل مبدع الفنون والثقافة.. وقد دارت حوله أساطير عديدة..

وتروى الأناشيد القديمة أن ثلاثة من السحرة قدموا إلى الكاهن العظيم لتحريضه على إدخال التضحية البشرية.. ولكن الكاهن العظيم رفض بقوة.. لأنه يحب شعبه حبًا عظيما.. وكانت النتيجة أن قرر السحرة إدخال الهمّ والاضطراب فى قلب الكاهن.. فيحملونه بذلك على الفرار.. ويبدو أن السحر كان له تأثيره.. فامتنع الساحر عن تناول الطعام وصار شبحًا ضعيفًا فأعطاه السحرة مرآة لينظر فيها.. وحرضوه على شرب سائل مخدر ادعوا أنه دواء يشفيه.. فذاق الكاهن السائل ثم شربه كله حتى ثمل.. فإذا بهذا الكاهن الصالح المستقيم يتحول إلى ماجن سكير يطلب اللذة بكل أشكالها..

ومن هنا لم يجد الكاهن أمامه سوى الفرار شرقًا فى طريق منطقة النور ويقال إنه رحل فى البحر على طافية من الأفاعى.. ويقال أيضا إنه ألقى بنفسه فى نار هائلة حتى خرج منها جسدًا سماويًا.

ويظل الناس مؤمنين بعودته أو على حد تعبير الأنشودة..

هكذا قال الشيوخ فى العصور القديمة:

حقًا إن (كوتز الكواتل) نفسه مازال حيا

إنه لم يمت وسوف يعود ليحكم من جديد..

وندرك أن الإله المزدوج والكاهن صارا رمزين لأصحاب السمو الروحى.. وأن الشمس بضيائها هى التى ترافق الحياة فى السماء والأرض..

أما عقيدة المكسيك وتصور الناس للآخرة فتتلخص فى أن الآخرة تتكون من ثلاثة أمكنة معدة لطوائف مميزة من الموتى..

فرب الأمطار كان له مكان للسرور والسعادة.. ويذهب إليه كل الذين اختارهم إله المطر لموت معين.. بالغرق أو بأن يصعقهم البرق أو من الاستسقاء أو النقرس.. وهؤلاء.. على خلاف غيرهم ـ لم يكونوا يحرقون ولكن يدفنون فحسب..

وإلى جوارهم تقع منطقة أخرى هى (الشجرة المرضعة الندية من أجل الأطفال الذين ماتوا قبل أن يبلغوا سن العقل والتفكير) فهم يتلقون الغذاء من دوحة كبيرة كانت فروعها تقطر لبنًا عليهم..

وأخيرًا نجد الطبقة الثالثة التى يذهب إليها أغلب الموتى من البشر وتسمى (مكان الموت) والموتى فيها يقاسون سلسلة من الامتحانات تستغرق أعواما يتوقف الميت بعدها عن الحياة..

وندرك من هذا التصور أنها تشير إلى عقائد مشتركة بين المكسيك وغيرها من الشعوب القديمة..

فالاعتقاد فى أساس مزدوج من أم وأب لآلهة البشر يوجد فى عقائد كثيرة.. وتصور أركان العالم الأربعة وخصائصها وألوانها وعناصرها الأربعة وطبقات السماء والعالم السفلى للموت إنما هو مشابه بلاشك فى بعض العقائد فى حضارات الهند والصين والتبت واليابان..

وحينما وصل المبشرون الأسبان إلى المكسيك أنكروا عليهم هذه العقيدة فكان رد حكماء المكسيك هكذا:

تقولون: إننا لا نعرف سيد كل مكان
خالق السماوات والأرض
تقولون: إن آلهتنا ليست الآلهة الحقة
تلك كلمات غريبة
إن أجدادنا الذين عاشوا على هذه الأرض
أعطونا وصايا الحياة
وقدموا الإجلال للآلهة
بكل صور الاحترام
وكل أساليب العبادة..

تصميم الغلاف: جرافيتي

أشهر العقائد الدينية فى العالم القديم

قبل ظهور الرسالات السماوية، عرف العالمُ القديم دياناتٍ وثنية متعددة عُرفت باسم "الديانات الوضعية"، وذلك في مصر والعراق واليونان وإيطاليا وما سواها من الحضارات القديمة. وكانت هذه الديانات تدور حول عبادة مظاهر الطبيعة ـ كالشمس والقمر والرياح ـ واختلاق آلهة أسطورية تتحكم فيها وفي مصائر البشر. كما عَرفت بعضُ الشعوب دياناتٍ أخرى كالبوذية والهندوسية والشِّنْتَوِيَّة والمجوسية في آسيا، وكان لكلٍّ من هذه الديانات عقائد وعبادات وطَقوس مختلفة تتسم بالغموض والتعقيد الشديد، وهو ما جعل تبسيطها للقراء والتعريف بها أمرًا عسيرًا مرهقًا.. غير أن هذا الكتاب الذي بين يديك ـ أخي القارئ ـ قد أدى هذه المهمة بنجاح؛ إذ قدم في بساطة وإيجاز تعريفًا شاملًا بهذه الأديان وتاريخها، ومن ثَمَّ فهو يعتبر بمثابة "مقدمة ضرورية" لفهم حضارات العالم القديم وعباداتها الزائفة التى تداعت أمام ديانات التوحيد السماوية السمحة.

